١٠ ـ العدالة فى الإسلام أيضاً

أرسل الله تعالى رسوله محمداً صلوات الله وسلامه عليه بالهدى ودين الحق ، بشيراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجًا منيراً ، فكان (جزاه الله عنا أفضل ما يجازى به نبى عن أمته) قوام كل مائل ، وصلاح كل جائر ، ونصفة كل مظلوم ، ومفزع كل ملهوف .

وكان بين الناس كالراعى الشفيق ، الرفيق على إبله ، يرتاد لها أطيب المرعى ، ويحميها من لفح الحر ، وشدة البرد ، ويحول بينها وبين السباع الضوارى ، والوحوش الكاسرة .

وكان صلى الله عليه وسلم خير قائم بين الله وبين عباده ، ينظر إلى الله ، ويريهم السبيل السوىّ ، وينزل عليه تاج الملائكة جبريل بالوحى ، فيبلغه قومه بالحكمة والموعظة الحسنة ، عاملاً كل آن على نشر لواء العدالة ومدّ رواق الإنصاف ، هادماً صروح الفوضى ، قاضياً على الظلم والجور . فاطمأنّ الناس إلى عدالة هذا الدين الحنيف ، ودخلوا فيه أفواجًا ، طائعين لا مجبرين ولا مكرهين .

وإن المتتبع لسيرة أشرف الخلق صلوات الله وسلامه عليه ، يرى فيها العدالة واضحة كل الوضوح ، ولو سرّحنا الطرف فى رياض بساتين الأحاديث النبوية لوقفنا على الكثير ، الداعى إلى التمسك بأهداب العدل والإنصاف ، الناهى عن تنكيب جادة القسطاس ، المحذر من الاقتراب من الظلم الذى يهوى بصاحبه فى بؤر الشقاء ، ومهاوى الهلاك والدمار .

ولا نذهب بالقراء بعيداً لنسرد لهم كل ما يؤيد أن الإسلام يحق دين العدالة والإنصاف من كلام سيد الأولين والآخرين وأفعاله ، وحسبنا ما رواه الإمام أحمد وأبو داود والنسائى وابن ماجه عن صفوان بن أمية قال : « كُنْتُ نَائِمًا فِي الْمَسْجِدِ عَلَى خَمِيصَةٍ وَكِسَاءٍ أَسْوَدَ مُرَبَّعٍ لَهُ عَلَمَانِ لِي فَسُرِقَتْ ، فَأَخَذْنَا السَّارِقَ وَرَفَعْنَاهُ إِلَى رسول الله صلى الله عليه وسلم فَأَمَرَ بِقَطْعِ يَدِهِ، فَقُلْتُ : يارسولَ الله أَفِي خَمِيصَةٍ ثَمَنُهَا ثَلَاثُونَ دِرْهَمًا تُقْطَعُ يَدُهُ ؟ أَنَا أَهَبُهَا لَهُ ، أَوْ قَالَ : أَنَا أَبِيعُهَا لَهُ . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فَهَلَّا كَانَ ذَلِكَ

قَبْلَ أَنْ تَأْتِيَنِي بِهِ ، ثمَّ قَطَعَهُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ». فهل ترى عدالة وراء هذه العدالة ؟ لما ثبتت السرقة ووجب حد السارق ، سارع الرسول الكريم إلى تنفيذ أمر الله ولم يقبل هبة صفوان الخميصة للسارق حتى يعفيه من قطع يده ؛ لأن الرسول الكريم يعلم أن فى حد السارق عبرةً وعظةً لسواه حتى لايفعل غيره هذه الفعلة الشنعاء التى لايعملها الإنسان حين يعملها وهو مؤمن ؛ بل لقد قطع رسول الله صلى الله عليه وسلم يد رجل سرق برنساً (قلنسوة طويلة ، أوكل ثوب رأسه منه دراعة كان أوجبة) من صُفَّة النساء (موضع مختص بهن من المسجد . وصُفَّة المسجد موضع مظلل منه) وثمنه ثلاثة دراهم .

ومما يوضح تمام الوضوح أن سيد الأولين والآخرين لم يقبل الشفاعة فى الحدود ، وأنه كان دائماً رافعاً منار العدالة والقسطاس ، مارواه أبوداود والنسائى عن عائشة وابن عمر « أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ الْأَسْوَدِ بْنِ عَبْدِ الْأَسَدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ ، وَهِيَ بِنْتُ أَخِي أَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الْأَسَدِ الصَّحَابِيِّ ، كَانَتْ تَسْتَعِيرُ الْمَتَاعَ وَتَجْحَدُهُ ، فَأَمَرَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم بِقَطْعِ يَدِهَا ، فَأَهَمَّ ذٰلِكَ قُرَيْشاً ، وَرَاحُوا يَبْحَثُونَ عَمَّنْ يُكَلِّمُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم حَتَّى لَا يَقْطَعَ يَدَهَا » .

فقالوا — بعد أن أفرغوا وسعهم فى البحث : ومن يكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حبيبه ؟ فكلموه فى ذلك كما عاذت المخزومية بأم سلمة و بنتها زينب وعمرو بن أبى سلمة ، فشفعوا لها إلى النبى صلى الله عليه وسلم فلم يشفعهم .

فطلب الجماعة من قريش من أسامة الشفاعة فى أمر فاطمة ظنًّا منهم بأن النبى صلوات الله وسلامه عليه يقبل شفاعته لمحبته له ، فيعدل عن قطع يدها .

فذهب أسامة إلى الرسول الأعظم وكلمه فى أمرها، فقال له : يا أسامة لاأراك تشفع فى حدّ من حدود الله عز وجل ، ولمّا تشفع لا تشفع فى حد ، فإن الحدود إذا انتهت إلىّ فليست بمتروكة . ثم قام النبى صلى الله عليه وسلم خطيباً فقال ـ بعد أن حمد الله حق الحمد ، وأثنى عليه أبلغ الثناء :

« أَيُّهَا النَّاسُ : إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ الشَّرِيفُ

مِنْهُمْ تَرَكُوهُ ، وَإِذا سَرَقَ الضعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ . وَالَّذِى نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْ كَانَتْ فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ لَقَطَعْتُ يَدَهَا » وقطع يد المخزومية .

ولا يخفى على القارئين أن الظاهر من هـذا الحديث أن القطع كان لأجل الجحد ، فالرسول الكريم نزل الجحد منزلة السرقة ، لأنه يصدق على جاحد الوديعة أنه سارق ، والحق قطعه . وورد فى الصحيحين وغيرهما تصريح بذكر السرقة .

وأخرج ابن ماجه والحاكم وصححه عن ابن مسعود « أنها سرقت قطيفةً من بيتِ رسول الله صلى الله عليه وسلم » ووقع فى مرسل حبيب بن أبى ثابتٍ أنها سرقت حليًا . ويمكن الجمع بين هاتين الروايتين بأن الحلى كان فى القطيفة .

وذكر جحد العارية فى رواية أبى داود والنسائى السابقة، لايدل على أن القطع كان له فقط ، ولايبعد أن يكون ذكر الجحد للتعريف بحالها ، وأنها كانت مشتهرة بذلك الوصف والقطع كان للسرقة .

وكل هـذه الروايات على تنوّعها تنطق بعدالة الإسلام ، وتدل صراحة على أنه دين الإنصاف وقانون القسطاس ؛ فلم يقبل رسول الله من أسامة حبيبه الشفاعة فى الحدود ، وأقسم بحق القوىّ القادر (الذى نفس كل مخلوق بيده) أن فاطمة كريمته وهى بَضعة منه لو كانت السارقة لقطع يدها ، وندّد على السابقين فى تركهم للشريف الحبلَ على الغارب ، ومعاقبة الضعيف على مايبدو منه ، ولاذنب له فى هذا إلا أن الله اختار له أن يكون ضعيفاً واختار للشريف أن يكون شريفاً، ولـكن الإسلام — وهو دين الفطرة لكل زمان ومكان — سوّى بين معتنقيه فطبقت أحكامه على المسلمين بدون فارق بين عربى وأعجمى ، وأبى نبىّ الإسلام قبول شفاعة الشافعين فى أمر فاطمة المخزومية ، فضرب بذلك مثلاً أعلى للمسلمين فى أن يكونوا عادلين فى كل أمورهم حتى يَنْبُهَ قدرهم، ويرتفع شأنهم ، ويكونوا قدوةً للعالمين. (لِمِثْلِ هٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ — وفى ذلك فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ) .

(مجلة الإسلام) (أحمد على منصور)

١١ — صفات الإمام العادل

لما ولى الخلافة عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه كتب إلى الحسن البصرى أن يكتب إليه بصفات الإمام العادل ، فكتب إليه :

اعلم يا أمير المؤمنين ، أن الله تعالى جعل الإمام العادل قوام كل مائل ، وَقصْد كل جائر ، وصلاح كل فاسد ، وقوة كل ضعيف ، ونصفة كل مظلوم ، ومفزع كل ملهوف .

والإمام العادل يا أمير المؤمنين ، كالراعى الشفيق ، الحازم الرفيق ، الذى يرتاد لها أطيب المراعى ، ويذودها عن مراتع الهلكة ، ويحميها من السباع ، ويكفيها من أذى الحرِّ والقرّ .

والإمام العادل يا أمير المؤمنين ، كالأب العانى على ولده ، يسعى لهم صغاراً ، ويعلمهم كباراً ، ويكسب لهم فى حياته ، ويدخر لهم بعد وفاته .

والإمام العادل يا أمير المؤمنين ، كالأم الشفيقة ، البرّة الرفيقة بولدها ، حملته كرهاً ، وربته طفلاً ، تسهر لسهره ، وتسكن لسكونه ، ترضعه تارةً ، وتفطمه أخرى ، تفرح لعافيته ، وتغتم لشكايته .

والإمام العادل يا أمير المؤمنين ، وَصِىُّ اليتامى ، وخازن المساكين ، يربى صغيرهم ، ويمون كبيرهم .

والإمام العادل يا أمير المؤمنين ، كالقلب بين الجوارح ، تصلح بصلاحه ، وتفسد بفساده

والإمام العادل يا أمير المؤمنين ، هو القائم بين الله وبين عباده ، يَسمع كلام الله ويُسمعهم ، وينظر إلى الله ويريهم ، وينقاد لله ويقودهم إليه .

فلاتكن يا أمير المؤمنين فيما ملّكك الله كعبد ائتمنه سيده ، واستحفظه ماله وعياله ، فبدّد المال ، وشرّد العيال ، فأفقر أهله ، وأهلك ماله .

واعلم يا أمير المؤمنين : أن الله تعالى أنزل الحدود ليزجر بها عن الخبائث والفواحش ، فكيف إذا أتاها من يليها ؟ .

وأن الله تعالى أنزل القصاص حياةً لعباده ، فكيف إذا قتلهم من يقتص لهم ؟

واذكر يا أمير المؤمنين الموت ومابعده ، وقلة أتباعك عنده ، وأنصارك عليه ، فتزوّد له ولما بعده من الفزع الأكبر .

واعلم يا أمير المؤمنين أن لك منزلاً غير منزلك الذى أنت فيه ، يطول فيه مكثك ، ويفارقك أحباؤك ، يسلمونك فى قعره وحيداً فريداً فتزود له ما يصحبك (يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ) .

واذكر يا أمير المؤمنين إذا بُعثر ما فى القبور ، وحصِّل مافى الصدور ؛ فالأسرار ظاهرة والكتاب لايغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها .

فالآن يا أمير المؤمنين ، وأنت فى مَهَل قبل حلول الأجل ، وانقطاع الأمل .

لاتحكم يا أمير المؤمنين فى عباد الله بحكم الجاهلين ، ولاتسلك سبيل الظالمين ، ولاتسلط المستكبرين على المستضعفين ، فإنهم لا يرقبون فى مؤمن إلاً ولا ذمة ، فتبوء بأوزار مع أوزارك ، وتحمل أثقالاً مع أثقالك .

ولا يغرنك الذين يتنعمون بما فيه بؤسك ، ويأكلون الطيبات فى دنياهم بإذهاب طيباتك فى آخرتك .

يا أمير المؤمنين ! لاتنظر إلى قدرتك اليوم ، ولكن انظر إلى قدرتك غداً ، وأنت مأسور فى حبائل الموت ، وموقوف بين يدى الله فى مجمع من الملائكة والنبيين والمرسلين ، (وَ) قد (عَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ) .

وإنى يا أمير المؤمنين ، وإن لم أبلغ بعظتى ما بلغه أولو النهى من قبلى ، فلم آلك شفقة ونصحاً ، فأنزل كتابى إليك ، كمداوى حبيبه يسقيه الأدوية الكريهة ، لما يرجو له من العافية فى ذلك ، ومن الصحة ؛ والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

والإمام العادل هو أول السبعة الذين يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله ، كما جاء فى الحديث الشريف : « سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّهُ : (إِمَامٌ عَادِلٌ) وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللهِ ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ بِالْمَسْجِدِ إِذَا خَرَجَ مِنْهُ حَتَّى يَعُودَ إِلَيْهِ ، وَرَجُلاَنِ تَحَابَّا فِي اللهِ فَاجْتَمَعَا عَلَى ذَلِكَ وَافْتَرَقَا عَلَيْهِ ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ

عَيْنَاهُ ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ ، فقالَ : إِنِّى أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فأَخْفَاهَا حَتَّى لاَ تَعْلَمُ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ » .

(عن أبى هريرة وأبى سعيد)

١٢ — صفات الحاكم العادل

ينبغى للحاكم أن يكون فَطِناً لبيباً ، بعيداً عن الشر ، قوىّ الشكيمة ، صادق الفراسة ، بعيد النظر عالماً ديّناً ، متصفاً بأجمل الصفات الطيبة ؛ ولذا قال الإمام علىّ كرم الله وجهه :

قد علمتم أنه لاينبغى أن يكون الوالى على الدماء والمغانم والأحكام ، وإمام المسلمين — : البخيل ، فتكون فى أموالهم نهمته ، ولا الجاهل فيضلهم بجهله ، ولا الجافى فيقطعهم بجفائه ، ولا المرتشى فى الحكم ، فيذهب بالحقوق ، ويقف بها دون المقاطع ، ولا المُعطل للسنة ، فيهلك الأمة .

وقد كتب الحسن بن سهل وزير المأمون العباسى إلى محمد بن سَمَاعة القاضى يطلب منه اختيار حاكم لأحد المناصب يكون جامعاً لخصال الخير ، فطناً لبيباً ، ذاعقل ودين .

وهذه الرسالة قد جمعت كل الصفات التى يجب أن يتصف بها الحاكم من حيث الكفاية والدين ، وهى :

أما بعد : فإنى احتجت لبعض أمورى إلى رجل جامع لخصال الخير ، ذى عفة ونزاهة طُعمة ، قد هذبته الآداب ، وأحكمته التجارب ، ليس بظنين فى رأيه ، ولا بمطعون فى حسبه ، إن أومن على الأسرار قام بها ، وإن قلد مهمًّا من الأمور أجزأ فيه ، له سِنٌّ مع أدب ، ولسان تعقده الرزانة ، ويَسكنه الحلم .

قد فُرَّ عن ذكاء وفطنة ، وعُض على قارحة من الكمال ، تكفيه اللحظة ، وترشده السكتة .

قد أبصر خدمة الملوك وأحكمها ، فقام فى أمورهم فُحمد فيها ؛ له أناة الوزراء ، ووصولة الأمراء ، وتواضع العلماء ، وفهم الفقهاء ، وجواب الحكماء ، لا يبيع نصيب يومه بحرمان غده ، يكاد يسترقّ قلوب الرجال بحلاوة لسانه ، وحسن بيانه .

دلائل الفضل عليه لائحة ، وأمارات العلم له شاهدة ، مضطلعاً بما استنهض ، مستقلاً بما حُمِّل .

وقد آثرتك بطلبه ، وحبوتك بارتياده ، ثقةً بفضل اختيارك ، ومعرفةً بحسن تأنّيك .

فهذه الصفات لو توافرت فى الحاكم لكان مثلاً أعلى للفضل والكمال .

(أدب الإسلام . الجزء الرابع . ص ٢٠)

١٣ — واجبات الحاكم

يجب على الحاكم العاقل أن يجمع بين العدالة والرحمة ، وبين الشدة والحلم ، وذلك بالسهر الدائم على مصالح الرعية، ولو كان فى هذا السهر تضحيةً للنفس، وتكريس كل القوى النافعة ، لأن الحاكم النزيه ، العالم بأحوال البلاد وحاجاتها إذا كان ضعيف الهمة ، غير سديد الرأى ، لا يصلح للحكم حين تدفعه الحالة إلى إخضاع العصاة ، وكسر شوكة الأشقياء ، فإن فى الناس من خلق للشرّ والفساد ، أولئك لا سبيل إلى اتقاء شرهم ، وفسادهم بغير معاملة العنف والشدة . قال تعالى :

(وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ، فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ. وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ. إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) .

والقسوة فى معاملة الثائرين المهيجين والمعتدين والارهابيين ، وقطع دابرهم مما يسهل طرق المعاملات ، ويمهد وسائل الكسب والراحة والطمأنينة فى الأمة ، فتنمو الثروة ، وترقى الصناعة والزراعة طبقاً لطبيعة البلدان ، وأخلاق أهلها ؛ فتحسن علاقاتها الخارجية ، ويزيد نفوذها ، وتمتد تجارتها ، ويزداد ربحها .

انظر هذا الموضوع فى كتابنا « التربية الاجتماعية »

خطبة فى محاسن العدل ومساوى الظلم

الحمد لله أقام بالعدل نظام ملكه ، وجعله سبيل عطفه و برّه ؛ فأمر بإعطاء الحقوق لأربابها ، ونهى عن منعها أوانتقاصها ، ووعد على ذلك بمحبته ومعونته ورحمته وجنته ، إنه كان وعده مأتيًّا ، وما كان ربك نسيًّا . وأشهد أن لاإله إلا هو لابدّ منتقم من الظالمين ، إما فى الحياة العاجلة ، أوفى الحياة القابلة .

(وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ، إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ) .

وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله عدل بين رعيته ، وأنصف فى قضيته ، فأمّنه العدل ، ولاذ إليه الخصم ، فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وصحبه ومن اقتفى أثرهم من الحكام المقسطين ، والقضاة المنصفين .

أما بعد — فالسعيد من عدل ، والشقىّ من ظلم ؛ العادل راضية عنه نفسه ، راضٍ عنه قومه ، محبّ له ربه .

الظالم إن كان له ضمير وخزه كل ساعة وأنّبه ، فنفسه به شقية ، والرعية منه فى بلية ، عقاب الله له بالمرصاد ، فى الدنيا زوال السلطان وخراب الديار ، وفى الآخرة النار ، و بئس القرار .

العادل لايرعى إلا الله فى عمله ، فلا يحابى أحدًا من خلقه ، فإن دُعى إلى الشهادة أقامها بالقسطاس المستقيم ، ولو على نفسه أو الوالدين والأقربين ، لا يفرق فيها بين العدوّ والحميم ، و إن دُعى إلى منصة القضاء استضعف الظلمة الأقوياء ، حتى ينتصر منهم للضعفاء ، لايفضل خصماً لمـالِه ، ولالمركزه وجاهه ، ولا لانتمائه لحزبه ، واعتناقه لمبدئه ورأيه ، بل كل الخصوم أمامه سواء ، حتى يقضى بينهم بالحق ، و يُعطى كلاً مااستحق ؛ إن دُعِى إلى ولاية أو إمارة أو رياسة أو إدارة سلك فيمن تحت يده سبيل العادلين ، ولم تأخذه فيهم لومة اللائمين ، ولا شفاعة الشافعين ، ولا رِشا الراشين ، ولا سطوة الحاكمين ؛ بل سلطان الله قائم فى نفسه ، لايخضع إلا لأمره ، ولايعمل إلا بوحيه ، فيد الله تؤيده ، وجنده يمده ، أولئك عباد الله المخلصون ، أولئك حزب الله المفلحون ، أولئك الذين تقوم بهم الدولة ،

وتُقْسر بهم الأمة ، فتعيش عيشةً راضيةً ، أفرادها وجماعاتها ، فقراؤها وأغنياؤه ، ضعفاؤها وأقوياؤها ، يعيشون على أنفسهم مطمئنين ، وعلى أموالهم وأعراضهم آمنين ، فيتمتعون بما أوتوا فى الحياة متاعاً طيباً ، وينعمون فيها نعياً صافياً .

أما أولئك الظلمة العتاة ، الطغاة البغاة ، فإذا بليت بحكمهم أمة ، وأصبحت لهم السيطرة والكلمة ؛ أصبح منهم الخفير والعمدة ، ومن يليهم فى الرتبة إلى أكبر مناصب الدولة ؛ إذا بليت الأمة بأولئك ؛ رفع الله يده عن معونتها ، وسلط عليها من يجدّ فى شقوتها ؛ يحتل ديارها ؛ ويسلبها أموالها ؛ ويهين كرامتها ؛ بل ويطأ بنعليه هامتها ؛ إذا ابتلت الأمة بأولئك سادت فيهم المنازعات ، وكثرت بين أفرادها الخصومات ، فتغص بهم النيابات والمحاكم ، وتملأ بهم الأقسام والمراكز ؛ فيشغلون النيابة ووكلاءها ، والمحاكم وقضاتها ، والإدارة ورجالها ؛ يشغلون كل أولئك عن مصالح أخرى هى أجدر بالرعاية ، وأولى بالعناية ؛ ولا تنسوا ماينفقه الخصوم للوكلاء والمحامين والسماسرة والكاتبين ، أملاً فى الفوز على خصمهم ونصر باطلهم أوحقهم ، فإنه مال كثير إذا أضفناه إلى ميزانية المحاكم كان المقدار جسيماً ، والرقم عظيماً .

فلو كنا عادلين ، لكنا بهذا المال مقتصدين ، ننفقه فى شئوننا الأخرى ، ومصالحنا العظمى .

ألا يعرف الظالم ما تجنى يداه ، وأنه سوف يندم فى أخراه ويقول : (يَا حَسْرَتَا عَلَى مَافَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللهِ) .

ألا يعرف أنه بظلمه يقتل الكفايات ، ويميت الحريات ، ويضعف روح الإجادة فى الأعمال ، ويقلل الإحسان فيها والإتقان .

ألم يعرف أن الظلم ظلمات يوم القيامة ، وأنه نار وقودها الناس والحجارة .

إن كنت ياظالم لاترعوى بالتحذير والإنذار ، فاسمع جزاء الله للعادلين ، عَلَّ قلبك يخشع ، وفى ثواب الله تطمع ، كتب الله ليحبنهم ، وليُجيبن دعاءهم ، وليرفعن درجتهم على درجة العابدين ؛ وليكون لهم نعم النصير والمعين ، كتب الله أنه يظلهم يوم القيامة

بظل عرشه ، وأنه يُجلسهم عن يمينه بقربه ، وأن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدًا ، رضى الله عنهم ورضوا عنه .

فاسمع ياظالم جزاء العادلين ، عسى أن تكون من التائبين ، عسى أن تقول : اللَّهم اهدنى سواء السبيل ، (رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ) .

الحديث — روى الطبرانى عن معاوية رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لاَ تُقَدَّسُ أُمَّةٌ لاَ يُقْضَى فِيهَا بِالْحَقِّ ، وَلاَ يَأْخُذُ الضَّعِيفُ حَقَّهُ مِنَ الْقَوِىِّ غَيْرَ مُتَعْتَعٍ » .

وروى أحمد عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثَلاَثَةٌ لاَ تُرَدُّ دَعْوَتُهُمْ : الصَّائِمُ حَتَّى يُفْطِرَ ، وَالإِمَامُ الْعَادِلُ ، وَدَعْوَةُ الْمَظْلُومِ يَرْفَعُهَا اللهُ فَوْقَ الْغَمَامِ ، وَيَفْتَحُ لَهَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ ، وَيَقُولُ الرَّبُّ : وَعِزَّتِى لأَنْصُرَنَّكِ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ » .

(من كتاب إصلاح الوعظ الدينى)
للمرحوم الأستاذ محمد عبد العزيز الخولى

١٤ — المساواة نوع من العدل

إن حق المساواة ناشئ من نسبة الفرد للمجتمع باعتباره عضواً فيه ؛ له الحق فى التمتع بجميع مزاياه ، وعليه واجب الخضوع لأنظمته كسائر الأفراد ؛ فكما أنه مساوٍ لهم فى هذا الخضوع ، يجب أن يكون مساوياً لهم فى التمتع بثمرات المجتمع لايختلف عنهم إلا بمقدار مايستحقه من هذه الثروة .

ولم يكن هذا الحق معترفاً به قانونا حتى القرن الأخير ، فقد كان لطبقة الأعيان دون العامة ، و بعد الثورة الفرنسية اعترف بحق المساواة والحرية والإخاء لجميع الناس .

وقد نبهت الشريعة الغراء على أن الناس كافة فى الإنسانية سواء ، و برهنت على ذلك بأنهم جميعاً مخلوقون من أصل واحد ، فقال تعالى : (يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ

ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « لَيْسَ لِعَرَبِيٍّ فَضْلٌ عَلَى عَجَمِيٍّ إِلاَّ بِالتَّقْوَى » .

ومبدأ المساواة أن يحترم الناس بعضهم بعضاً ، و يصرموا حبل الأزدراء والاحتقار فتبنى معاملاتهم على المعدالة والمماثلة ، و يسود النظام ، و يعمّ الأمن ؛ كما أن هذا المبدأ يُشعر بنى الإنسان جميعهم بأن سبل المجد والشرف مباحة لكل قاصد ، وأن التفاضل لابالحسب ولا بالنسب ، و إنما هو بالكمال العقلى والخُلقى ، و بذلك تتوق نفوسهم إلى الشرف والانتساب إلى الفضيلة .

وليس معنى المساواة أن توزع الثروة من أموال وأراضىَ ومتاع وعقار على الناس بالسواء ، فلا يكون غنى وفقير ، ولا متسوّلون وعمال ، و يكون الكل شركاء ، متساو ين فى الرزق فإن توز يع الثروة بهذه الطر يقة ضرب من الظلم ، ونوع من النظام الاشتراكى الوخيم العاقبة ، فالمساواة التامة غير ممكنة وليست من العدل ، قال تعالى : (واللهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فى الرِّزْقِ) .

وقال تعالى : (نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ) .

فالناس متفاضلون : فى الثروة والجاه والدرجات ، لتباينهم فى القوى العقلية والجسمية والخلقية ، وتنازعهم وسائلَ الرزق وأسباب المعيشة بحكم طبيعتهم . فمن الخُرق أن يكونوا متساو ين فى الأعمال والثمرات والأموال وَ (هَلْ يَسْتَوِى الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ؟ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ ؟) ، بل كيف يسوغ لفئة الكسالى والأغبياء والبُله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان ــ أن ينالوا من الثروة مايناله المجدّون الأكفاء ، والعاملون الأقو ياء ؟ فإنهم إن مُنحوا ذلك أساءوا استعماله وأضاعوه هباء ، ولم ينتفعوا بثمراته ولم يتمتعوا بخيراته بسبب قصورهم وعجزهم وتقاعدهم عن العمل .

على أن هـذا الاختلاف بين الناس يبعثهم على الجد ، و يوقظ فيهم روح التنافس ، و يبعث فيهم الأمل ، وهذا هو سر مانشاهده من النشاط المستمر فى جميع مرافق الحياة ،

فإن الناس جميعاً على اختلاف أزمانهم ، وتفاوت درجاتهم فى الغنى والفقر وسائر وسائل الكسب ـ يسعون سعياً حثيثاً ليظفروا بالتمتع بالنعيم ، والطيبات من الرزق ، فإذا ما انقطع الأمل أو ذهب التنافس قلّ المجهود ووقف العالمَ عند حد الجمود ، ولا يمكن أن يبقى أو يرقى فالاختلاف فى الأعمال والثروة والمنزلة يؤدى إلى خير الإنسانية .

ولذا كانت المساواة المطلقة فى كل شىء غير ممكنة ولا جائزة ، وليست من العدالة فى شىء وهناك أمور تكون فيها المساواة ضربا من العدل ، وعدم المساواة نوعا من الظلم . ومن ذلك:

أولاً : المساواة أمام القانون ، فلا فرق أمامه بين عظيم وحقير ، وكبير وصغير ، وغنىّ وفقير ، بل الكل سواء ، من ارتكب منهم إثمًا أو خطيئة أو ذنبًا أو جُرمًا ، عوقب على ما فعل من غير تفضيل لطبقة على طبقة ، فالقوانين التشريعية والمدنية والجنائية ، تجرى على جميع الناس بدرجةٍ سواء ، لافرق بين أحد منهم .

لهذا كان واجباً عليهم أن يقدسوها ويجلوها ، وإلا انتشر الظلم والعسف ، وحلت الفوضى محل النظام ، وانطوت حكمة الحق ، واختلت أسباب الحياة .

وقصة جبلة بن الأيهم (وهو آخر ملوك بنى غسان) فى خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب تدل على التشديد فى العدالة تثبيتاً لمبدإ المساواة .

فقد أسلم جبلة واتفق أنه كان يطوف يوما بالبيت فداس أعرابى من فزارة على طرَف ردائه ، فلطم الفزارىّ على وجهه لطمة شديدة ، فاستعدى عليه عمر ، فقال له عمر رضى الله عنه : دعه يقتص منك ، فقال لعمر: وهل أستوى أنا وهو فى ذلك ؟ أنا ملك ، وهو سوقة . فقال له : إن الإسلام سوّى بينكما . فقال جبلة : أجّلنى إلى غد . فلما أصبح مضى إلى قيصر ملك الروم ، وارتدّ ثم ندم وقال :

تنصرت الأشراف من عار لطمة ... وما كان فيها لو صبرت لها ضرر
تكنفنى منها لجاج ونخـــوة ... وبعت بها العين الصحيحة بالعور
فيـــا ليت أمى لم تلدنى وليتنى ... رجعت إلى الأمر الذى قاله عمر

ثانيا : المساواة فى الحقوق ، كحق الحياة ، وحق الحرية ، وحق الملكية ونحو ذلك[1]

(١) انظر بيان هذه الحقوق فى كتابنا « الآداب الاجتماعية » .

فلكل إنسان من هذه الحقوق ما للآخر سواء بسواء ، بمعنى أن له الحق فى أن يحيا و يعيش حرًّا ، وأن يمتلك ، والمجتمع هو المسئول عن هذه الحقوق ، ولهذا جاءت القوانين الوضعية والشرعية بما يكفل المساواة فى هذه الحقوق ، حتى لايحرم أحد من حقوقه الطبيعية .

ثالثاً : المساواة فى المناصب والوظائف ، فليست هذه وقفاً على فئة دون أخرى ، بل ينالها كل من تتوافر فيه الشروط الموضوعة لها ؛ أما عدم المساواة فيها فهو منافٍ لقواعد الدين والمبادئ الديمقراطية الصحيحة ، وأصول المصلحة العامة التى لا تعرف وساطة لتولّى المناصب غير الجدارة والاستحقاق .

أما الاعتبارات الأخرى كالغنى والجاه والقرابة فلا دخل لها فى التفضيل ، لأنها تتناقض وهذه القاعدة الطبيعية ، وتؤدى إلى نتائج ضارة . ولهذا فإن الدستور المصرى نص فى مادته الثالثة فى باب حقوق المصريين وواجباتهم على : (أنهم لدى القانون سواء ، وأنهم متساوون فى التمتع بالحقوق المدنية والسياسية ، وفيما عليهم من الواجبات والتكاليف العامة ، لا يميز بينهم فى ذلك بسبب الأصل أو اللغة أو الدين ، و إليهم وحدهم يعهد بالوظائف العامة مدنية كانت أو عسكرية) .

فالقانون الأساسى فى مصر ينص صراحةً على تساوى المصريين وعدم التمييز بينهم فى أية ناحية من نواحى الحياة ، ويسوّى بينهم فى كل شئ ، فلا يفضل مصرياً على آخر فى تولى المناصب الحكومية لأىّ سبب من الأسباب ، بل الكل متساوون ، والعامل الأدقّ فى التفضيل هو الكفاية .

وقد صدق الله فى قوله : (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ) .

فالدين الإسلامى قد أمر بالمساواة ، وعدم تفضيل أحد على آخر إلا بالتقوى والعمل الصالح حتى أصبح كل المسلمين سواء .

مصطفى خفاجى

(عن مجلة نشر الفضائل)

العدد ٢٧ ــ السنة الخامسة

١٥ — مراعاة الحقوق والواجبات

تدعو طبيعة الإنسان إلى أن يختلط بغيره من بنى جنسه ليتبادلوا المنافع وثمرات أعمالهم ، ويتعاونوا على مايرقى شأنهم ، ويخفف عنهم أعباء الحياة ومطالب المعيشة ، وهذا الاختلاط من شأنه أن يجعل لكل واحد على الآخَرِين حقوقاً ، كما يجعل عليه لهم واجبات . فإذا ماعرف كل منهم حقه والواجب عليه ، وحرص على أن يطالب بحقه ويستوفيه ، ويؤدى ماعليه لغيره من الواجبات ، عاش بهم سعيدا ، وعاشوا به سعداء ، واستقامت لهم أمور الحياة ، وطاب الاختلاط ، وأنتج التعاون والتناصر والمحبة ، وكان من وراء ذلك الخير الكثير والسعادة للجميع .

وللفرد أنواع كثيرة من الخطاء الذين تدعوه الحياة إلى العمل معهم .

فمنهم الأقارب : وهم متفاوتون فى القرب والصلة ، فمنهم الأولاد ، ومنهم الآباء ، ومنهم الإخوة والأخوات ، ومنهم من بعد ذلك .

ومنهم الجيران ، وهم مختلفون فى القرب والبعد .

ومنهم الشركاء : فى صناعة أو تجارة أو زراعة ، أو عمل آخر .

ومنهم من أوجب الله لهم عليه حقوقاً ، وإن لم يكونوا فى الطوائف المتقدمة كالفقراء واليتامى والإخوة فى الدين أو الوطن إلى غير ذلك .

ولكل من هؤلاء حقوق تختلف باختلاف صلة الإنسان به قوةً وضعفاً ، وقرباً وبعداً .

فللأولاد : حقوق التربية والتعليم ، والتهذيب وحسن الرعاية ، حتى يشبوا فى حياطة العلم والدين والثقافة ، والاستعداد لملاقاة مشاقّ الحياة ، والتدرج بسلاح القوة والرجولة ، كى يعيشوا فى مأمن من فواجع الدهر ، وبؤس الحياة .

وللأبوين : البر والإحسان ، والطاعة والوفاء ، بما لهم من دَين فى عنق الأبناء ، كى يقضوا ماقدِّر لهم من العمر فى وقاية من ذل العيش ، ومضض الحاجة ، وأثقال الأيام .

ولسائر الأقارب بذل المعونة على قدر الاستطاعة ، واحترام الكبير ، والشفقة على الصغير ، وتفقد أحوالهم ، وتوفير أسباب الحياة الهنيئة لهم ، سواء بماله أو جاهه .

وللجيران مواساتهم فى الضراء ، ومشاركتهم فى السراء ، ومساعدة فقيرهم ، وعيادة مريضهم ، ودفع الأذى والضرر عنهم .

وللشركاء فى تجارة أو صناعة أو زراعة أن يكون أساس التعامل بينهم الصدق فى الأقوال والأعمال ، والمحافظة على أموالهم وأسرارهم ، وتجنب الحرام فى طرق الكسب والابتعاد عن الغش والطمع والحرص .

ولغير هؤلاء مواساة اليتيم ، وإعانة الفقير وتعليمه ومداواته ، والعطف على الضعفاء والمنكوبين ، وحسن معاملة الناس ، وعدم الكبر على أحد ، ولين الجانب ، والصفح عن هفوات الإخوان .

فلو أن كل إنسان عرف ماعليه من الحقوق لغيره فأدّاها ، لارتاحت قلوب الجميع ، واستطاعوا أن يعيشوا فى وئام وهناءة ، يحفهم الأمن ، وتظلهم الطمأنينة والسعادة ، ويعمهم الخير ، وتنمو فى قلوبهم المحبة والإخلاص ، ويتبادلون التعاون والمنافع ، وتزول أسباب الخصومات ، ويأمن كل على نفسه وماله وأولاده وعرضه ومرافق الحياة .

انظر إلى المحاكم تجدها قد امتلأت بالقضايا والمتقاضين ، وانظر إلى السجون تراها قد ضاقت بالمسجونين ، وتأمل فى المشاجرات التى تُراق بسببها الدماء وتزهق الأرواح ، لاسبب لذلك إلا عدم مراعاة كل واحد حقوق الآخر ، والرغبة من القوى أو الشرير فى اغتصاب أموال غيره ، والطمع فيما فى أيدى الناس . ولو أن كل واحد أعطى غيره حقه كما يجب أن يأخذ حق نفسه ، لاستراح الناس ، وعاشوا فى وفاق وسلام ، وتوافرت لهم أموالهم وأوقاتهم وعقولهم وصحتهم ، فاستخدموها فيما يرقى شئونهم ، ويقوى أمتهم ، ويكسبها المجد والفخر .

انظر بيان الحقوق والواجبات فى كتابنا (التربية الاجتماعية) . مجلة نشر الفضائل

١٦ — وجوب العدل على الحكام وإيصال الحقوق إلى أهلها

لا يمنع من ذلك خصومة شخصية

الحاكم هو الأمين الذى يتولى شئون الدولة ، ويتصرف فيها بما أوتيه من عقل وفطنة وخبرة ، وبمقتضى ما يوحى به ضميره ، ويأمر به دينه . فكان لزاما أن يكون من ذوى العدالة والورع والتقوى .

لاتأخذه هوادة فى تطبيق القانون ، وإقامة الحدود ، وتنفيذ الأحكام ، مراعياً العدل وعدم التحيز ؛ فإن كان قاضياً مثلاً اعتمد فى أحكامه على الحجج والبراهين ، وجعل العدل شعاره ، وحب الحق دثاره ، وعليه ألا يذكر وهو فى كرسى القضاء صاحباً ولا قريباً ، بل يكون جميع الناس أمامه سواء . يحكم بينهم بالعدل ، غير خائف من حاكم ، أومتهيب من عظيم أومتطلع لفائدة ، أوحريص على مركزه ، أومتأثر بميول غريبة ، بل يكون دائماً رجلاً نزيهاً ، بعيداً عن التحيز وآثام الشهوات ، حتى يطمئن الناس إليه ، ويتحقق العدل فى أحكامه .

فإن العدل : ميزان الله عز وجل فى أرضه ، المنصوب بين الخليقة ، نصبه الله وجعل له قيماً وهو (المَلِك) وكل من ينفذ الأحكام نائباً عن الملك نفسه ؛ وبه يؤخذ للضعيف من القوى ، وللمحق من المبطل .

فمتى أزال ميزان الملك عز وجل عما وضعه بين عباده فسد أمره ، وضاع ملكه .

قال تعالى : (وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ) .

وقال تعالى : (وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا) .

والمعنى لايحملنكم بُغض قوم على ترك العدل فيهم .

وقال صلى الله عليه وسلم : « أَشَدُّ النَّاسِ عَذَاباً يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ أَشْرَكَهُ اللهُ فِى سُلْطَانِهِ فَجَارَ فِى حُكْمِهِ » .

وقال بعض الحكماء : أقرب الأشياء صرعةً المظلوم ، وأنفذ السهام دعوة المظلوم .

وقال أردشير بن بابك : إذا رغب الملِك عن العدل ، رغبت الرعية عن طاعته .
والحاكم السوء يخيف البرىء ، ويصطنع الدنىء ؛ فما أنفع العدل ، وما أضر الجَور !

(أدب الإسلام الجزء الرابع)

مثال القاضى العادل

حكى : « أن النبى صلى الله عليه وسلم كان جالسًا مع جماعة من أصحابه ، فجاءه خصمان فقال أحدهما : يارسول الله إن لى حمارًا ، وإن لهذا بقرة ، وإن بقرته قتلت حمارى .

فبدأ رجل من الحاضرين فقال : لاضمان على البهائم .

فقال صلى الله عليه وسلم : أقْضِ بَيْنَهُمَا يَا عَلِيُّ (وعلىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه ابن عم النبى صلى الله عليه وسلم) . فقال علىّ لهما : أكانا مرسَلين أم مشدودين ؟ أو أحدهما مشدودًا والآخر مرسلاً ؟

فقال : كان الحمار مشدودًا والبقرة مُرسَلة وصاحبها معها .

فقال علىّ : صاحب البقرة ضامن الحمار .

فأقرّ صلى الله عليه وسلم حكمه ، وأمضى قضاءه ، وقدمه على بقية الحاضرين من الصحابة وكانوا أكبر منه سنًّا لفطانته .

عدل عمر بن عبد العزيز

كان لعمر بن عبد العزيز (الخليفة الأموى فى أوائل القرن الثانى للهجرة) قائد اسمه : (قتيبة بن مسلم الباهلى) حالفه النصر فى كل موقعة حتى وصل شرقًا إلى تخوم الصين ؛ واستطاع أن يضع يده على (بلاد السند) بدون حرب واحتلت جيوشه البلاد .

فاجتمع أهلها للتشاور فى الأمر بشأن إجلاء هذه الجنود الأجنبية عن البلاد ، واقترحوا أن يذهب وفد منهم يشكو هذا القائد المحتل إلى الخليفة عمر بن عبد العزيز ولىّ أمره . فلما وصلوا إليه وشرحوا له قضيتهم ، التفت إلى قاضيه الذى اعتاد أن يجلس بجواره وطلب منه أن يحقق بنفسه هذه القضية وأن يفصل فيها . فقال القاضى : لا أستطيع الحكم إلا بعد سماع أقوال الطرفين فى الخصومة .

فأمره الخليفة أن يذهب مع الوفد إلى بلاده ليقابل قائد الجيش و يفصل فى هذا النزاع .

وفى الطريق حاول الوفد الشاكى أن يقدم إلى القاضى ركوبةً وطعاماً ، فأبى القاضى قبول ذلك لأنه يعتبره رشوة ؛ وركب دابته من الشام إلى بلادهم وأكل من خبزه الجافّ .

فلما وصل عقد مجلساً رجّ البلد واستدعى (قتيبة) وأوقفه أمامه مع مندوب الوفد .

وقد اعترف (قتيبة) القائد المسلم بحقيقة ماحدث منه فى طريقة احتلال البلاد .

وهنا تتجلى عدالة الإسلام .

الحكم بالجلاء

فأصدر القاضى المسلم حكمه على الجيش المسلم بالجلاء فوراً ، و بأن يردّ الجيشُ كل ما أخذه ، وأن يرجع كل شئ إلى أصله ، وهمّ القائد بالتنفيذ .

ولكن عدالة الإسلام فى حكمه استثارت حماسة الأهلين ، ورضوا أن يدخلوا تحت حكم الإسلام طائعين .

(محمد شريف المستشار السابق)

الأهرام فى ١٠ — ٩ — ١٩٤٧

١٧ — دستور الدولة فى العهد النبوى

كيف كانت توزع الوظائف والأعمال فى حكومة حضرة النبى صلى الله عليه وسلم ؟

فى الظواهر التى تلفت نظر الباحث فى نشأة الدولة الإسلامية ، أن رجال الأعمال الذين قاموا بوظائفها في عهدها الأول ، كانوا (بدواً) لم يتعلموا فى جامعات ، ولم يدرسوا فيها نظم السياسة ولا فنون الحكم ، كالحاصل بين ظهرانينا الآن .

ومع هذا فقد قاموا بأعمالهم خير قيام ، ونجحوا فى سياستهم أسمى نجاح ، وما كان انتصار قادتهم فى ميادين الجهاد أروع من انتصار ساستهم فى إدارة شئون البلاد .

تجلت آيات نجاحهم فى مختلف شئون الدولة : ففى الرياسة العامة قام أبو بكر وعمر ابن الخطاب بأعباء الدولة ، بالعدل والحزم والشورى ، وكانوا أسوة حسنة لخير من يلى

أمور الناس ، ومثلهما كان عثمان وعلىّ. وفى إدارة الولايات قام أبو عبيدة ومعاوية بالشام ، وعمرو بن العاص بمصر ، وسعد بن أبى وقاص بالعراق ، وغيرهم من ولاة الأمصار وعمالهم لسياسة الولايات والشعوب سياسة ثبّت دعائم ملكهم ، ومدت فتوحاتهم ، وحببتهم إلى الأمم التى دخلت فى سلطانهم ، ورأت تلك الأمم من هؤلاء البدو وعدلهم ، وحسن سياستهم مالم يروه من سياسة الدولتين العريقتين فى النظم والحضارة : دولة الفرس ، ودولة الرومان .

وفى التعليم دبّ نور العرفان والعلم ، فقد قام عبد الله بن عمر بالمدينة ، وعبد الله بن عباس بمكة ، وعبد الله بن مسعود بالكوفة ، وعبد الله بن عمرو بن العاص بمصر ، ومعاذ بن جبل بالشام ، وغيرهم من علماء الصحابة بنشر العلم بين أفراد الأمة ، حتى أوجدوا روح التنافس العلمى بين مختلف الأمصار .

وكانت المدينة ومكة والكوفة والبصرة ومصر ودمشق ، تموج بحركة علمية مثمرة ، مالبثت حتى أنجبت عدة من المجتهدين من تابعى هؤلاء الصحابة ، وتابعى تابعيهم ، مما عجزت معاهد تعليمنا الحاضرة بمناهجها ونظمها من أن تنجب مثلهم واحداً فى القضاء ، والسياسة المالية ، وسائر شئون الدولة ؛ فقد توّجت أعمالهم بالنجاح

هذا النجاح الذى وصل إليه عمال الدولة الإسلامية فى أول عهدها ، له أسباب عدة ، وأهمها :

أولها : حسن اختيار الرجال للأعمال ؛ وثانيها : اليقظة فى مراقبتهم ؛ وثالثها : شعور العمال بواجبهم وإخلاصهم فى أدائه .

١ — حسن اختيار الرجال للأعمال ، فأما حسن اختيار الموظف فقد وضع أساسه القويم رسول الله صلى الله عليه وسلم بفعله وبقوله ، فقد روى الطبرى : أن ثلاثة أرباع عمال الرسول كانوا من بنى أمية ، مع أن حوله العدد الكثير من قومه بنى هاشم ، ذاك لأنه إنما أراد للأعمال أهل الغناء والكفاية ، ولم يقصد إلى نفع قريب أو تدبير مورد رزق لمحتاج .

وروى عن أبى ذرّ الغفارىّ أنه قال : قلت : « يارسول الله ؛ ألا تستعملنى ؟ فضرب

بيده على منكبي ثم قال : يَا أَبَا ذَرٍّ إِنَّكَ ضَعِيفٌ ، وَإِنَّهَا أَمَانَةٌ ، وَإِنَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ خِزْيٌ وَنَدَامَةٌ ، إِلاَّ مَنْ أَخَذَ بِحَقِّهَا ، وَأَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ فِيهَا » .

وروى عن أبي موسى الأشعري قال « دخلت أنا ورجلان (من بني عمي) على النبي صلى الله عليه وسلم فقال أحد الرجلين : يارسول الله ؛ أمِّرنا على بعض ماولاك الله ، وقال الآخر مثل ذلك ، فقال الرسول عليه الصلاة والسلام : إِنَّا واللهِ لاَ نُوَلِّي عَلَى هٰذَا الْعَمَلِ أَحَدًا سَأَلَهُ ، وَلاَ أَحَدًا حَرَصَ عَلَيْهِ ، فاعتذر أبو موسى وقال : لم أعلم ماجاءا له » .

وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مَنْ قَلَّدَ رَجُلاً عَلَى جَمَاعَةٍ ، وَهُوَ يَجِدُ فِي تِلْكَ الْجَمَاعَةِ مَنْ هُوَ أَرْضَى مِنْهُ ، فَقَدْ خَانَ اللهَ وَخَانَ رَسُولَهُ وَخَانَ الْمُؤْمِنِينَ »

وذلك : لأنه بعمله حرم الجماعة من مزايا أكفئهم ، وربما أدى التمادي في هذا إلى إماتة الكفايات ، فالرسول عليه الصلاة والسلام عدَّ المتعدي على الأكفاء بتعيين من هو دونهم كفاءة ، خيانةً لله وللرسول ولجماعة المؤمنين ، لأن في هذا إضاعة مصالح الأمة ، وإهداراً لكفاية أرباب الكفايات ، فتضعف العزائم ، وتسوء سمعة الأمة الإدارية ، وتضيع مصالحها .

لهذا كان الرسول عليه الصلاة والسلام لايولي عملاً إلا من تحقق أنه أحق به لكفاءته قوةً وخلقاً . ومامنعته لمجاملة أن يرد أبا ذرّ ويواجهه بأنه ضعيف ، ولا أن يرد الأشعريين لما طلبا الإمارة بلسانهما ، وما حملته المحاباة أن يختار للأعمال من بني هاشم ، ويؤثرهم على بني أمية ، لأن أعمال الدولة ليست حقاً لواحد ، وإنما هي لمصلحة الأمة فوق رضا الآحاد .

فمن الخيانة أن ينفع الفرد بإضاعة مصالح الأمة ، وأن يراعي جانب الواحد ، ولا يراعي جانب الجماعة ؛ وعلى هذا الأساس في الاختيار سار بعد الرسول خليفته أبو بكر ، وسار بعدهما عمر بن الخطاب ، ومثلهما عثمان وعلي ، وكان لهم جميعاً في هذا الاختيار فراسة صادقةً وسياسةً موفقةً .

فكان عمر يتحرى صفات العامل ومكانته في نفوس من يوليه عليهم ، ويستشير فيمن يوليه .

قال يوماً لأصحابه وهو يستشيرهم فى اختيار عامل (أمير) : إذا كان فى القوم كان كأنه واحد منهم (أعنى لايتعاظم عليهم بإمارته لهم) فقالوا : نرى لهذه الصفة الربيع بن زياد الحارثى ، فنشير به ، فولاه عليهم ؛ فوفق فى عمله .

و بلغه أن عُمير بن سعيد هو القائل : (لايزال الإسلام منيعاً مااشتد السلطان ؛ وليست شدة السلطان قتلاً بالسيف ، ولاضرباً بالسوط ، ولكن قضاء بالحق وأخذ بالعدل) .

فقال : وددت أن لى رجلاً مثل عُمير بن سعيد أستعين به على أعمال المسلمين .

وفى أول عهده بالخلافة قال ؛ بعد أن حمد الله وأثنى عليه : أما بعد ، فقد ابتليت بكم وابتليتم بى ، وخلفت فيكم بعد صاحبى ، فما كان بحضرتنا باشرناه بأنفسنا ، وما غاب عنا وليناه أهل القوة والأمانة ، ومن يحسن نزده حسناً ، ومن يسىء نعاقبه .

مدير مجلة هدى الإسلام (السنة الثامنة)

مختصر قصيدة فى العدل

(لصاحب السعادة السيد باشا شكرى)

بالعدل يأمر ربنا فى آيتـــه ... وكذا بالإحسان وفق شريعته

العدل وصف الله جل جلاله ... والمتقـــين من العباد أحبته

والعدل إنصاف الفتى فى صنعه ... مع ربه والناس أو شخصيته

قد أحسن المولى إلى كل الورى ... فمن العـدالة شكره بعبادته

فاعبده لا تشرك به شيئاً ولا ... تك غافلاً عن أمره وطاعته

من قابل الإحسان بالإحسان قد ... وفى العـــدالة حقها بتتمته

ونهاية الإحسان إحسان إلى ... من قد أساءك فعله بأذيته

واقض الحقوق لأهلها طبقاً لما ... أمر الإله بشرعه وعـــدالته

فابدأ بذى القربى وكن متيقظاً ... لشئون ما ترعى كواجب شرعته

إذ كلنا راع ومســـئول لدى ... مولاه حقاً عن شئون رعيته

معنى حديث المصطفى فافطن له ... إن كنت تبغى رحمةً بوسيلته
والله ينهانا عن البغى الذى ... هو موجب لشقائنا بطبيعته
لنفوز فى الدنيا بطيب حياتنا ... ونفوز فى الأخرى بنعمة جنته
والعدل أس الملك يا من يبتغى ... ملكاً يدوم بعزه لنهايته
وعليه عمران الممالك والقرى ... والظلم يهدمه بمعول فتنته
وإذا العدالة أهملت فى أمة ... كرهت بقاء مليكها وحكومته
ولربما اضطربت وثارت طغرة ... واختلّ حال الأمن رغم حراسته
من ولّى الأحكام فليعدل كما ... أمر الإله مخافةً من نقمته
فى قول سبحانه (أن تحكموا ... بالعدل) موعظة لنا من حكمته
هل يستوى عدل وظلم أم يُرى ... نور النهار كظلمة فى ليلته ؟
فإذا حكمتم فاحكموا بالعدل إذ ... ظلم العباد محرّم لإساءته
والعدل أيضًا فى الشهادة واجب ... منعًا لظلم واتقاء مضرته
فإذا شهدتم فى القضا فتجنبوا ... زوراً وقولوا الحق خوف إضاعته
حتى على الآباء والأولاد أو ... أىّ امرئ لكم انتمى بقرابته
واخشوا عقاب الله دومًا واعدلوا ... فالعدل خير للجميع بخطته
فالعدل يرفع من غدا متمسكاً ... بزمامه يحييه بعد إماتته
والظلم يخفض ظالمًا مهما يُرى ... من حاله ويسوؤه فى سمعته

إلى أن قال فى ختامها :

بالعدل والإحسان أوصى ربنا ... ونهى عن الظلم الشنيع لحرمته
فالله يرزقنا التوكل دائمًا ... والعدل فى كل الأمور بمنته
ثم الصلاة على النبى محمد ... بالعدل والإحسان جاء لأمته
بالآل والأصحاب مَن قد شيّدوا ... ركن السلام بحكمهم وعدالته

(عن المنظومة الشكرية)

الجزء الثالث باختصار صفحة ٢٢٨

قصيدة أخرى لسعادته

فى الحاكم وحب الرياسة وإطاعة الحكام

فضل الفتى بين الورى بكياسته ... ومحاسن الأخلاق لا برياسته
حبُّ الرياسة فى النفوس سجية ... فليحترس من رامها من فتنته
فُتنت بها فئةٌ فضلّ صوابها ... لم تبغ إصلاحًا يدوم بنعمته
إن المناصب والرياسة آفة ... للمرء مالم يَرقها بعدالته

لا تغترر بظهور او برياسة ... وانظر لعاقبة الظهور ومحنته
واحفظ لنفسك فى الرياسة سمعةً ... فالمرء يبقى ذكره فى أمته
إما بخير أو بشر حسبما ... هو صانع فى سيره وإدارته
ياطالباً لقب المعالى فى الدنا ... ورياسة تدعى بصاحب دولته
هلا اتخذت وقايةً تحميك من ... خطر السقوط إذا دهاك بفجأته؟
كل يسارع فى الرقىّ وإنما ... خير الرجال من ارتقى بكفاءته
بالعلم والتقوى وخشية ربه ... والقسط فى الأحكام أس سلامته
هذا الذى تسعى المناصب نحوه ... من غير أن يسعى لها لنزاهته
والسعى فى سلب المناصب خِسة ... كبرى وخزى فاحذروه لخسته
كم حاكم ضر البلاد بظلمه ... حبًّا لدنيا أو لنفع أحبته
(حب الرياسة رأس كل خطية) ... لمن اعتدى فى حكمه برياسته

فتراه فى الدنيا يثوب بخيبة ... ويرى شديد عذابه بقيامته
وإطاعة الحكام أمر واجب ... فيما يوافق شرع رب بريته
فدع الذى تبع الغواية والهوى ... واتبع سبيل من اهتدى فى خطته
واعلم بأنك لاتنال سوى الذى ... قسم الإله بفضله ومشيئته
فمتاع دنياك الدنيئة زائل ... والفوز فى تقوى الإله وخشيته
ضربت لنا الأمثال هل من سامع؟ ... فاسمع مقالاً قد أتاك بحكمته

فى الناس كن ذَنَبا ولا تك رأسهم ... فعلى الرءوس تكون أول ضربته

كم حاكمٍ دارت عليه دوائر ... وبظلمه ذاق الهوان بقسوته

كم من رئيس صار مرءوسًا لمن ... أمضى زمانًا تحت حكم رياسته

كم من مليك زال قهرًا ملكه ... مع ظنه عدم الزوال بقسوته

وغروره بمظاهر ألهتـــه عن ... عمل يقوم به لنفع رعيتـــه

أشقى العباد لدى الجزاء ملوكهم ... إلا الذى هو قائم بعدالته

يخشى الإله ويبتغى رضوانه ... والعفو عن زلاته فى مدته

(المنظومة الشكرية)

الجزء الثالث ص ٢٦٧

١٨ — حسن اختيار القاضى العادل

القاضى هو حارس الشرائع ، والمؤتمن على الآداب والعدالة ، وإليه مرجع القصاص من الجناة وعقاب الأشرار ، والأخذ بيد المظلومين الضعفاء ، إحقاقاً للحق ، وإزهاقاً للباطل .

ولا يقتصر عمل القاضى على الفصل بين الأفراد فقط ، بل ينظر كذلك فى الدعاوى التى تقوم بين الأفراد والحكومة فى الشئون الخاصة والعامة. (كما هو حاصل فى مجلس الدولة)

ولما كان القاضى هو المؤتمن على العدل ، وعلى حقوق الناس ، كان من الواجب أن يختار لهذا المنصب أنبل الناس خلقاً ، وأطهرهم نفساً ، وأذكاهم عقلاً ، ضماناً للعدل ، وإصلاحاً لنظام المجتمع .

١٩ — أهم واجبات القاضى[١]

ومن أهمّ واجبات القاضى القضاء بالعدل بين الناس ، والحكم بما أنزل الله .

فإذا قام بهذا الواجب استتبّ الأمن فى البلاد واستراح العباد ، ووقف كل إنسان عند حدود الله ، وقطع دابر القوم الظالمين ، وقضى على عدوان الأشقياء ، وتمتع الشعب بالراحة والهناء ، وأمن كل إنسان على حياته وماله وعرضه .

ومن واجبات القاضى أيضاً أن يكون قوى العزيمة ، سديد الرأى ، لاتأخذه فى الحق لومة لائم ، ولا اعتداء آثم ، وأن لايقبل من أحد رجاء أو رشوة أو شفاعة ، ليكون بعيداً عن الشبهات ، ولا يعرض نفسه للإهانات ، وشرفه إلى الانحطاط ، و بذلك يحوز الثقة من الناس والرضا من رب العالمين ، والناس أجمعين .

٢٠ — المحاماة وواجبات المحامى[٢]

المحاماة هى الدفاع عن الحق لإظهاره ، أو مقاومة الباطل لإزهاقه وهلاكه ، والمساعدة على إنصاف المظلوم من الظالم ، ولذلك كانت واجبات المحامى المطلوبة منه كثيرة وعظيمة وهى تتلخص فيما يأتى :

درس القضية جيداً للوقوف على مافيها ، فإن كانت على حق فليقبلها ويترافع فيها ، و إن كانت على باطل فليرفضها ، ولا يغش أصحابها ويقبلها ليبتزّ أموالهم بلا جدوى ، وتكون إساءته مزدوجة : إساءة نحو المغرورين بخبرته ودفاعه ، و إساءة نحو القضاء بما يأتيه أمامه من التمويه والخداع مجتهداً فى قلب الحقيقة وتغييرها .

وربما انخدع القضاء بحسن حيلته ولباقته ، فتسوء العقبى ، ويخرج المجرم بريئاً ، ويكبل البرئ ظلماً بالسلاسل والأغلال ، ويوضع فى ظلمات السجون بسببه ، و إساءة إلى نفسه حيث يضيع الثقة به ، ويلوث سمعته ، ويفقد شرفه وكرامته .

فليتق اللهَ القائمون بهذه المهنة ، خصوصاً رجال الدين منهم (المحاميون الشرعيون)

(١و٢) انظر واجبات القاضى والمحامى بالتفصيل فى كتابنا : « التربية الاجتماعية » .

فإنهم أولى الناس بحرمته ، ولا تغرنهم الحياة الدنيا ، فإن مايأخذونه من هـذا العرَض الزائل لايساوى شيئاً فى كرامة الدين ، والوقوف بين يدى أحكم الحاكمين ، يوم يتعلق المظلمون بالظالمين ، بل لايعد شيئًا فى جانب سقوط العدالة ، وفقدان المروءة والكرامة .

٢١ — القضـــاء

لما كانت مسألة القضاء فى مصر مسألة هامة يتوقف عليها راحة العباد ، واستتباب الأمن فى البلاد ، حتى إن أحد المستشارين الإنجليز وهو المستر (ماك بارنت) الذى قضى مدة طويلة فى خدمة القضاء المصرى ، كتب أخيراً مقالاً فى إحدى المجلات الإنجليزية الشهيرة : نشرت جريدة الأهرام الغراء ترجمة له ، خلاصتها باللغة العربية فى عدد يوم الأحد ١٩ مارس سنة ١٩٣٣ جاء فيها : « إن النظام القضائى فى مصر أصبح مظهراً من مظاهر الفوضى التى لاتحتمل» فرأيت أن أكتب كلمةً عامةً عن القضاء من الوجهة الدينية فقط ، تاركاً البحث فيه من الوجهة القانونية لرجال القانون ، فهم أدرى بعلله وعلاجه ، عسى أن يكون من ورائها ما أرجوه من خدمة الحق والصالح العام فأقول :

القضاء من أعظم الأمور وقعًا ، وأعمها نفعًا ، وعليه مدار مصالح الأمة عقلاً وشرعاً .

والغرض منه : إقامة ميزان العدل بين الناس بالقسط ، وفصل القضايا بين المتقاضيين عند الخصام ، وبسط بساط الإنصاف والعدل بين الخاص والعام ، والعدل — كما هو معروف : أساس الملك — وهو وضع الشىء فى محله وإيصاله إلى مستحقه ، وبه قوام الدنيا والدين ، وسبب صلاح الخلق أجمعين .

وقد حث الله عليه ، وبالغ فى التمسك والأخذ به فى جميع الأحوال وسائر الأعمال ، فقال جل شأنه :

(إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا ، وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ) .

وقال تعالى فى وجوب العدل بين الخصمين ، ولو كانا من أشد الناس عداوة وبغضاً إليه (أى إلى القاضى) :

(يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ، وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَنْ لاَ تَعْدِلُوا ، اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ، وَاتَّقُوا اللهَ ، إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) .

وقال تعالى : (يَادَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِى الْأَرْضِ ، فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ ، وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ) .

وما من أمة من الأمم قامت به ؛ إلا وكانت فى مقدمة الأمم عمرانًا وأكثرها حضارةً ومدنيةً ، وما حادت عنه ونكبت بالظلم إلا وكان الخراب رائدها والضعف قائدها ؛ لقوله تعالى : (فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا) .

فالويل كل الويل لقاضى الأرض من قاضى السماء !

وكما أن الله أمر الحكام والقضاة بالعدل بين الناس ، أمر عباده وأرشدهم إلى الوقوف عند حدود الشرع الشريف ، من عدم أكل أموال الناس بالباطل ، وأخذها منهم بدون استحقاق ، ولو برضاء المالك نفسه .

والأكل بطريق التعدى والتحدى ، والنهب والغصب ، وغيرها مما لم يبح الشرع أخذه ، ومثله مايؤخذ بالخصومة عند الحاكم ، فيخاصم الرجل أخاه فى ماله ؛ ويقيم الحجة على ذلك ، فيحكم الحاكم له به لما أقامه من الحجة الباطلة ، سواء كان ذلك بقوة بلاغته ، أو بشهادة الزور ، أو اليمين الكاذبة ، وهو يعتقد أنه ليس له فيه أدنى حق ، فإن ذلك حرام أيضا ، وقد نهى الله تعالى عن ذلك بقوله :

(وَلاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) .

ومعنى ذلك : ألا تتقربوا بالرشوة والهداية إلى الحكام ؛ ليعينوكم على الظلم ؛ وارتكاب الآثام .

فالمجرم الذى يسلك هذا السبيل ويحكم ببراءته ، لايلبث أن يصير من عوامل الفساد فى البلاد والخلل الاجتماعى ، لأنه يستطيع أن يعود إليه من العبث بالمال أو بالنفس .

وفى هذه الحالة ؛ فإن مرتكب الجريمة وأصحابه وأعوانه وجنوده ، الذين يلتفون حوله يهزءون بالقضاء والعدل .

بل وقد يعيشون فى أمن وسلام آمنين مطمئنين ، كشأن الوارث الذى يتمتع فى أمن وطمأنينة بمال مورثه .

أما المجرم الذى حقت عليه العقوبة من القضاء العادل ؛ إنما هو العبرة الزاجرة لطبقة المجرمين والناس أجمعين .

فالقضاء العادل يتطلب أن يكون القاضى مستقلا منصفاً ، نزيهاً قبل كل شىء . أما القاضى الذى يميل إلى الحكم فى قضية لغرض من الأغراض ، أو تحت تأثير الوجاه والمحاباة بل والمادة ، يركب متن الظلم ، ويبتعد عن مواطن الإنصاف والعدل .

وإذا ظهر القاضى بهذه الصفة ، يعدّه المجرم مشجعاً له على التمادى فى خطة الإجرام بل استهزاءاً وتحقيراً له .

فالخطأ القضائى الذى تؤدى إليه هذه النزعة ، سواء كانت بقصد أم بغير قصد ، يلقى فى النظام الاجتماعى العام بذور الحقد والضغينة والتذمر ، ويكون القاضى بمثل هذا الفعل المنكر سبباً لوقوع الجرائم وكثرتها ، التى يذهب الناس ضحيتها وهو لا يشعر .

ولنذكر حكاية فى فضيلة العدل والقاضى العادل :

نقل أن (عاقبة بن يزيد) القاضى كان يلى القضاء ببغداد للمهدى ، فجاء فى بعض الأيام وقت الظهر للمهدى وهو خال ، فاستأذن عليه ، فلما دخل عليه استأذنه فيمن يسلم إليه (القمطر) الذى فيه قضايا مجلس الحكم ، واستعفاءه من القضاء ، وطلب منه أن يقيله من ولايته . فظن المهدى أن بعض الأولياء قد عارضه فى حكمه ، فقال له فى ذلك : وإنه إن عارضك أحد لننكر عليه ، فقال القاضى : لم يكن شىء من ذلك . قال : فما سبب استعفائك من القضاء ؟.

قال : ياأمير المؤمنين ؛ كان تقدم إلىّ خصمان منذ شهر فى قضية مشكلة ، وكل يدعى بينةً وشهوداً ، ويدلى بحجج تحتاج إلى تأمل وتثبت . فرددت الخصوم رجاء أن يصطلحوا وأن يظهر الفضل بينهما .

فسمع أحدهما أنى أحب الرطب ، فعمَد فى وقتنا هذا (وهو أول أوقات الرطب ، فجمع رطبا لايتهيأ فى وقتنا جمع مثله لأمير المؤمنين ، وما رأيت أحسن منه ، ورشا بوّابى بدراهم على أن يدخل الطبق علىّ ولا يبالى أن يرد عليه) .

فلما أُدخل علىّ أنكرت ذلك ، وطردت بوابى ، وأمرت برد الطبق ، فرده عليه .

فلما كان اليوم تقدم الخصمان إلىّ ، فما تساويا فى عينى ولا فى قلبى .

فهذا يا أمير المؤمنين ولم أقبل ، فكيف يكون حالى لو قبلت ، ولا آمن أن تقع علىّ حيلة فى دينى وقد فسد الناس فأقلنى يا أمير المؤمنين ، أقالك الله ، وأعفنى ، عفا الله عنك .

فلو كان (عاقبة بن يزيد) عائشا الآن ، لحكم على الناس بالفساد المركب ، وتبرأ إلى الله منهم .

ولقد أحسن الشاعر فى قوله :

ونحن المقسطون إذا حكمنا ونعفو عن كثير قادرينا
وما أولى امرؤ يوماً إلينا بمال أو بجاه مترفينا

الإمام أبو حنيفة يرفض أن يتولى القضاء

تورعاً وخوفاً من الوقوع فى خطئه

مما يؤثر عن الإمام أبى حنيفة رضى الله عنه ، أن أمير المؤمنين أبا جعفر المنصور عرض عليه تولية القضاء ، فأبى وقال له : لا أصلح لذلك ، فقال له الأمير : كذبت ، أنت تصلح لذلك .

فقال : يا أمير المؤمنين ؛ قد حكمت على نفسك ، إن كنتُ صادقاً فقد أخبرت

أمير المؤمنين أنى لا أصلح ، وإن كنت كاذباً فكيف يحل لك أن تولى قاضياً كذاباً ؟ فأمر به إلى السجن .

فمن هذه الحادثة تعرف شدة ورعه وخوفه من الوقوع فى خطإ القضاء وهذا سبب امتناعه .

٢٢ — نبذة فى تاريخ القضاء فى الإسلام

مستخلصة من كتاب « تاريخ القضاء فى الإسلام »

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمود بن محمد بن عرنوس

القاضى بالمحاكم الشرعية بمصر سابقاً

القضاء هو من الأمور المعروفة المقدسة عند كل الأمم مهما بلغت درجتها فى الحضارة رقياً أو انحطاطاً .

وما رأينا وما سمعنا عن أمة تركت أمورها فوضى ، إذ الخصومة من لوازم الطبيعة البشرية ؛ فلو لم يكن هناك وازع للقوىّ عن الضعيف ، لاختل النظام ، وعمت الفوضى ، يشير إلى ذلك قوله تعالى : (وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيرًا) .

وقوله تعالى : (وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ) .

فلا غرابة إذا كان القضاء مما قدسته الشريعة الإسلامية من أول نشأتها إلى الآن .

وينقسم القضاء حسب أطواره إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : وهو من مبدإ نشوئه يبتدئ من هجرة النبى صلى الله عليه وسلم وينتهى إلى سنة ١٥٠ هجرية ، سنة تدوين الأحكام .

القسم الثانى : أو الطور الثانى ، يبتدئ من نهاية سابقه بعد تشييد مدينة (بغداد) عاصمة الخلافة العباسية ، لأن الحركة العلمية انتشرت فيها انتشاراً عظيماً ، وقد اجتمع العلماء فى هذه المدينة من كل فج ، وأخذوا فى تشييد العلم الإسلامى حتى أزهر واستمر وأثمر ، هذا الطور حتى بعد ضعف الخلافة فى بغداد ، بل بعد سقوطها واستيلاء الترك على الرقعة الإسلامية تقريباً ، ويمكن اعتباره ممتدًّا إلى سنة ١٢٥٥ هـ .

القسم الثالث : يبتدئ من ذلك التاريخ ، لأنه حصل فيه أن السلطان عبد المجيد العثمانى أصدر الخط الهمايونى المعلن فيه بإدخال الإصلاحات والنظامات الجديدة فى البلاد العثمانية جرياً على النظامات الغربية ، فأخذت الدولة من ذلك التاريخ فى إنشاء مجالس وتدوين قوانين تضاهى المجالس والقوانين الغربية ، فأنشأت (قانون عقوبات) على نمط قانون (فرنسا) .

ولما استقر الأمر (لمحمد على باشا) على مصر أوجب عليه الباب العالى أن يسير فى الحكومة على نظام الدولة العلية لأن مصر (كانت) جزءاً من أجزائها .

تعريف القضاء

قال أئمة الشرع : القضاء قطع الخصومة ، أوقول ملزم صدر عن ولاية عامة .

أما القضاء فى العرف الشرعى : فهو الفصل بين الناس فى الخصومات حسماً للتداعى وقطعاً للنزاع بالأحكام الشرعية المأخوذة من الكتاب والسنة ، وهو من أعمال الرسل عليهم الصلاة والسلام .

يدل على ذلك قوله تعالى : (وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ . فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا)

وقوله تعالى : (يَادَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ ، وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ) .

أول قاض فى الإسلام

بُعث النبى صلى الله عليه وسلم فى (مكة) ، وأقام فيها ماشاء الله أن يقيم ، ولما أذن له بالهجرة إلى (المدينة) ، هناك انتشرت دعوته ، وكثر متبعوه ، وكما كان مأموراً بالدعوة والتبليغ ، كان مأموراً بالحكم والفصل فى الخصومات ؛ وقد ورد فى القرآن الكريم فى غير ما آية مايشير إلى ذلك .

منها قوله تعالى : (فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ) .

وقوله تعالى : (فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) .

أما كيفية قضائه فيشير إليه ما ورد فى الحديث الصحيح الذى رواه الإمام أحمد فى مسنده عن أم سلمة هند زوج النبى صلى الله عليه وسلم أنها قالت : « جاء رَجُلان يختصمان فى مواريث بينهما قد درست ليس بينهما بينة . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ، وَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَلْحَنُ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ ، وَإِنَّمَا أَقْضِي بَيْنَكُمْ عَلَى نَحْوِ مَا أَسْمَعُ ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا فَلاَ يَأْخُذْهُ ، فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ يَأْتِي بِهَا إِسْطَامًا (المسمار الذى يحرك به النار) فِي عُنُقِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » . فبكى الرجلان وقال كل واحد منهما : حقى لأخى .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَمَّا إِذَا قُمْتُمَا فَاذْهَبَا فَلْتَقْتَسِمَا ثُمَّ تَوَخَّيَا الْحَقَّ ثُمَّ اسْتَهِمَا ، ثُمَّ لِيُحْلِلْ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمَا صَاحِبَهُ » . وسبق تفسير هذا الحديث .

والقضايا التى رفعت لرسول الله عليه الصلاة والسلام بالمعنى المتعارف فى الخصومات قليلة ، وإنما كان يُسأل عن الحكم فيجيب .

هذا هو الصحيح من أن أول قاض فى الإسلام هو النبى صلى الله عليه وسلم .

وذكر بعض المؤرخين الذى عنوا ببيان أوائل الأشياء : أن أول قاض فى الإسلام هو (عمر بن الخطاب) ، استقضاه أبو بكر فى خلافته ، فمكث سنة لم تأته قضية ، ولكن ذلك لم يصح .

ولما فتح الله على المسلمين بعض الأمصار بعث النبى عليه الصلاة والسلام وُلاة عليها فكان الوالى هو الحاكم وهو القاضى فبعث (مُعاذ بن جبل) إلى اليمن (وعتّاب بن أسيد) إلى مكة ؛ فقضوا بين الناس فى حياته صلى الله عليه وسلم .

وعلى هذه الحال سار أبو بكر رضى الله عنه ، فكان يقضى بين الناس بالمدينة ووُلاته فى الأمصار هم القضاة .

وقد كان عهده عهد فتن واضطراب ، فلم تتح له الفرص أن يفعل ما فعله عمر .

٢٣ — القضاء من الولاية

مضى زمن النبى عليه الصلاة والسلام وزمن أبى بكر ، والقضاء جزء من الولاية إلى أن جاء زمن عمر بن الخطاب ، فكثر فيه فتح الأمصار ، واتسع نطاق العمران ، فأصبح من المتعسر على الخليفة أو نائبه أن يجمع مع النظر فى الأمور العامة الفصل فى الخصومات ؛ ففصل عمر القضاء من الولاية ، وعهد به إلى شخص آخر غير الوالى .

قال ابن خلدون فى مقدمة تاريخه : أول من دفعه إلى غيره وفوض به عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، ولى (أبا الدرداء) معه بالمدينة ، وولى (شريحاً) بالبصرة ، وولى (أبا موسى الأشعرى) بالكوفة ؛ وكتب له فى ذلك الكتاب المشهور الذى تدور عليه أحكام القضاء وهى مستوفاة فيه .

وقد عنى كثير من المؤلفين فى الفقه الإسلامى بأن يصدروا كتبهم برسالة عمر ابن الخطاب إلى أبى موسى الأشعرى الذى أشار إليها ابن خلدون ، و يوجد فى روايتها خلاف يسير . وسنذكرها كما جاءت فى كتاب « أعلام الموقعين » لابن القيم وهى :

(بسم الله الرحمن الرحيم) ، من عبد الله أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس .

سلام عليك — أما بعد : فإن القضاء فريضة محكمة ، وسنة متبعة ، فافهم إذا أدلى إليك ، وأنفذ إذا تبين لك ، فإنه لاينفع تكلم بحق لانفاذ له ، وآسِ بين الناس فى وجهك وعدلك ومجلسك وقضائك ، حتى لايطمع شريف فى حيفك ، ولاييأس ضعيف من عدلك . البينة على من ادعى ، واليمين على من أنكر .

والصلح جائز بين المسلمين ، إلا صلحاً أحل حراماً ؛ أوحرم حلالاً ؛ ومن ادعى حقاً غائباً أو بينة ، فاضرب له أمداً ينتهى إليه فإن بينه أعطيته بحقه ، و إن أعجزه ذلك استحللت عليه القضية ، فإن ذلك هو أبلغ للعذر ، وأجلى للعمى ؛ ولا يمنعك قضاء قضيت فيه اليوم فراجعت فيه رأيك ، فهديت فيه لرشدك أن تراجع فيه الحق ، فإن الحق قديم لايعطله شئ ، ومراجعة الحق خير من التمادى فى الباطل ؛ والمسلمون عدول بعضهم على بعض إلا مجرباً عليه شهادة زور ، أومجلوداً فى حد ، أوظنيناً فى ولاء أوقرابة ؛ فإن الله تعالى تولى من العباد

السرائر ، وستر عليهم الحدود إلا بالبينات والأيمان ، ثم الفهم الفهم فيما أدلى إليك مما ورد عليك مما ليس فى قرآن ولا سنة ، ثم قايس الأمور عند ذلك واعرف الأمثال ثم اعمد فيما ترى إلى أحقها إلى الله ، وأشبهها بالحق ؛ و إياك والغضب والقلق والضجر ، والتأذى بالناس ، والتنكر عند الخصومة أوالخصوم ؛ فإن القضاء فى مواطن الحق مما يوجب الله به الأجر ، ويحسن به الذكر ؛ فمن خلصت نيته فى الحق ولو على نفسه كفاه الله مابينه و بين الناس ؛ ومن تزين بما ليس فى نفسه شانه الله ؛ فإن الله تعالى لايقبل من العباد إلا ما كان خالصًا . فما ظنك بثواب عند الله فى عاجل رزقه ، وخزائن رحمته . والسلام عليك ورحمة الله . اهـ

وقال (ابن القيم) بعد ذلك : وهذا الكتاب الجليل تلقاه العلماء بالقبول ، ودوّنوا عليه أصول الحكم والشهادة ، والحاكم والمفتى أحوج شئ إليه و إلى تأمله والتفقه فيه ، ثم شرحه شرحًا وافيًا فى الجزء الأول والثانى من كتاب أعلام الموقعين .

وقال حضرة صاحب السعادة محمد حسين هيكل باشا فى كتابه الذى وضعه فى سيرة عمر فى صحفة ٢٢٦ مايأتى ـ بعد أن ذكر كتاب أبى موسى الأشعرى : أرأيت إلى المبادئ التى قررها عمر فى هذا الكتاب ؟ أليس هى هى المبادىء التى يجرى القضاء عليها اليوم فى أكثر الأمم حضارة ؟ بل أليست هى المبادئ الثابتة التى لم تتغير بتغير الأزمان ، والتى تتناولها كتب الفقه والتشريع بالتعليق والشرح فى عشرات الصحف ومئاتها ؟ أوليس ما ذكره عمر عن أدب القاضى وما يجب عليه أن يلتزمه فى معاملة الخصوم بالغًا غاية السمو .

ولا عجب أن يصدر ذلك عن عمر، وقد كان أبو بكر يعهد إليه فى بعض شئون القضاء ؛ وقد تولى هو القضاء بنفسه فى العهد الأول من خلافته .

ثم لاعجب وقد كان فقيهًا رصين العلم فى الفقه ، يأخذ فى قضائه بخير مايعرف فى المسألة المعروضة عليه ، فإذا استبهم عليه أمر استشار واجتهد رأيه ، فكان اجتهاده موفقًا ، بل كان حجةً يأخذ بها مَن بعده ، مطمئنًا إليها ، واثقًا بها .

وهل غير القاضى النزيه العادل يقول ماقاله هو فى بعض وصاياه لمن يلوذ بالقضاء :

« إذا تقدم إليك الخصمان فعليك بالبينة العادلة ، أو باليمين القاطعة ، وأوّل الضعيف

حتى يشتد قلبه و ينبسط لسانه ، وتعهد الغريب فإنك إن لم تتعهده ترك حقه ورجع إلى أهله ، و إنما ضيع حقه من لم يرفق به » .

كانت إقامة القضاة خطوة أدت إليها الحاجة ، وقضت بها ضرورات التطور فى أحوال الدولة ، ولم تكن تنظيماً عاماً أريد به تطبيق مبدإ لذاته ؛ فقد بقى الفصل فى الخصومات متروكاً أمره للولاة الذين لم ترهقهم أعباء الولاية ، ولم تمنعهم من القيام به ، وهؤلاء لم يعين عمر قضاة إلى جانبهم ، بل ترك السلطات كلها مجموعة فى أيديهم ؛ لكن هذه الخطوة الأولى لم تلبث بعد سنوات أن أصبحت نظاماً من نظم الدولة ، فانفصل القضاء عن السلطة التنفيذية ، وصارت للقضاة مكانتهم الخاصة ، وأحيط مركز القاضى بكل ما يجب له من التحية والاحترام . وقال عن هـذا الكتاب : « إنه قطعة من أدب القضاء ، خالدة على الزمان » .

وقال أيضاً فى قصة تولية عمر شريحاً قضاء الكوفة : إنها خير شهيد على اختبار عمر لقضاته ؛ فقد ساوم عمر رجلاً على فرس ثم ركبه ليجرّبه فعطب ، فأراد أن يرده إلى صاحبه فأبى ، فقال : اجعل بينى و بينك حَكَما ، قال الرجل: شريح العراقى فتحاكما إليه .

فقال شريح بعد أن سمع حجة كل منهما : خذ ما ابتعت ، أو ردّ كما أخذت .

قال عمر : وهل القضاء إلا هكذا ؟ وأقام شريحاً على قضاء الكوفة فبقى عليه ستين سنة ، ولا تزال كتب عمر وأقواله تشهد بسعة علمه فى القضاء وأصوله وأحكامه .

طريقة اختيار القضاة

سبق لنا القول بأن عمر بن الخطاب هو الذى فصل القضاء من الولاية ، وكان يتشدد فى اختيار القاضى ، وهو القائل : مامن أمير أمّر أميرا ، أو استقضى قاضياً محاباة ، إلا كان عليه نصف ما اكتسب من الإثم ، و إن أمّره أو استقضاه لمصلحة المسلمين ، كان شريكه فيما عمل من طاعة الله تعالى ولم يكن عليه شىء مما عمل من معصية .

وقال عمر بن عبدالعزيز : إذا كان فى القاضى خمس خصال فقد كمل : علم بما كان قبله ، ونزاهة عن الطمع ، وحلم على الخصم ، واقتداء بالأئمة ، ومشاركة أهل العلم والرأى ، على هذه القاعدة كان اختيار القضاة .

وكان الذى يختار القاضى هو الخليفة نفسه ؛ وفى بعض الأوقات كان يكتب الخليفة للأمير أن يولى فلاناً قضاء بلده . وعلى الحالتين فالتعيين صادر من الخليفة ، وفى بعض الأحيان كان يفوض الخليفة للأمير فى تعيين القاضى ، والأمير هو الذى يختار .

وقد كتب أفضل الكتاب الإمام علىّ إلى عامله فى مصر كتاباً فوض له فيه اختيار القاضى بعد أن أرشده إلى الصفات الواجبة فيه .

قال : ثم اختر للحكم بين الناس أفضل رعيتك فى نفسك ممن لا تضيق به الأمور ، ولا تمحله الخصوم ، ولا يتمادى فى الذلة ، ولا يحصر من الفئ إلى الحق إذا عرفه ، ولا تستشرف نفسه على طمع ، ولا يكتفى بأدنى فهم إلى أقصاه ؛ أوقفهم فى الشبهات ، وأخذهم بالحجج ، وأقلهم تبرماً بمراجعة الخصوم ، وأصبرهم على كشف الأمور ، وأحزمهم عند اتضاح الحكم ممن لا يزدهيه المراء ، ولا يستميله إغراء ، وأولئك قليل ، ثم أكثر تعاهد قضائه ، وأفسح له فى البذل مايزيل علته ، وتقبل معه حاجته إلى الناس ، وأعطه من المنزلة لديك مالا يطمع فيه غيره من خاصتك ، فيأمن بذلك اغتيال الرجال له عندك .

الابتعاد عن منصب القضاء

خوفاً من ارتكاب الظلم

كتب عمر بن عبد العزيز إلى عدىّ بن أرطأة : أن اجمع بين إياس بن معاوية ، والقاسم بن ربيعة ، فولّ القضاء أنفذهما . فجمع بينهما وكانا غير راغبين فى القضاء .

فقال إياس : أيها الرجل ؛ سل عنى وعن القاسم فقيهى المصر (الحسن وابن سيرين) وكانا يحبان القاسم . فعلم القاسم أنه إن سألهما عنه أشارا به .

فقال : لاتسأل عنى ولا عنه ، فوالله الذى لاإله إلا هو إن إياس بن معاوية أفقه منى وأعلم بالقضاء ، فإن كنت كاذباً فما أشير عليك أن توليني وأنا كاذب ، وإن كنت صادقاً ينبغى لك أن تقبل قولى .

فقال إياس لعدى : إنك جئت برجل فوقفت به على شفير جهنم فنجى نفسه منها بيمين كاذبة يستغفر الله منها وينجو مما كان .

قال له عدى : أما إذا فهمتها فأنت لها ، فاستقضاه .

٢٤ — المحاماة أيضاً

وبجانب القضاء توجد المحاماة ، وهى مهنة شريفة جعلت لخدمة الحق ، والدفاع عن حقوق المظلومين والضعفاء والأرامل والأيتام .

وهى كما قيل : لسان حسن إذا استعملت للخير ودفع الشر ، ولسان خبيث إذا استعملت للخبائث .

فالمحامى الذى يضع على باب مكتبه لوحة بها كلمة : (محام) يدخل مكتبه جميع أنواع العالم ، ويأتيه الظالم والمظلوم ، والغابن والمغبون ، والمجرم والبرىء .

فإن كان رجلاً صاحب ذمة ، ونزيهاً شريفاً محترماً ، يدرك معنى واجباته نحو خدمة الإنسانية والعدل ، لايقبل مطلقاً دعوى من الدعاوى التى فى جانب الزور والبطلان مهما أعطى له من المال ، ولا يرضى أن يكون ظهيراً للمجرمين ، واضعًا نصب عينيه قوله تعالى : (قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ) .

أما المحامى الذى يرى ويعتقد بطلان دعوى موكله ، ثم لا يتورع من الوقوف أمام القضاء مرافعًا ومدافعًا من جانب الباطل ، مدحضًا ببطلانه حق خصمه ، مضللاً القضاء بسفسطته وتهويشه ، فهو شريك المجرم ، بل هو المجرم الحقيقى ؛ لأن مبرئ اللص لص مثله ، ومجرم البرىء مجرم ، ومُطلِق القاتل سفاك سفاح زنيم ، معتد أثيم .

وفى الأمثال : شريكك فى الجرم من أعانك عليه ، والذى يتستر على الحرامى فهو حرامى مثله .

فإن كان سارق المال ومغتصبه مجرمًا ، فالمحامى الذى يدافع عنه ويعينه على أكل أموال الناس بالباطل ، لاسيما الأرامل واليتامى جدير بأن يكون أكبر المجرمين ، ويستحق اللعنة من الناس أجمعين ، وسخط أحكم الحاكمين .

قال الله تعالى : (هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « مَنْ أَعَانَ ظَالِمًا لِيُدْحِضَ بِبَاطِلِهِ حَقًا فَقَدْ بَرِئَتْ مِنْهُ ذِمَّةُ اللهِ وَرَسُولِهِ » . (عن ابن عباس)

وقال عليه الصلاة والسلام : « مَنْ أَعَانَ عَلَى خُصُومَةٍ بِظُلْمٍ لَمْ يَزَلْ فِي سَخَطِ اللهِ حَتَّى يَنْزِعَ » .

ومما يوجب الأسف والحسرة أن يكون فى زمرة المحامين الأفاضل من لا يكلفون نفوسهم عناء الدرس والبحث وراء الحق ، فيشاركون أهل الاحتيال والنصب فى احتيالهم ونصبهم ؛ بل هم أنفسهم يساعدونهم على ذلك بما عندهم من سعة الفكر والذكاء ، وضروب الحيل والدهاء ، ولا يبالون بحمل موكليهم على الإتيان بشهداء الزور ، ويوحون إلى أصحاب القضايا و إلى الشهود المزوّرين ضروباً من الضلالة التى ما كانوا يعرفونها حتى يتبرأ المجرم المحتال الضلالى المزور من جريمته ، ويخرج من المحكمة مرفوع الرأس ، شامخ الأنف ، ويفلت من يد القضاء العادل بفضل مساعى محاميه ، وتضليله القضاة ، وتكون المسئولية واقعة عليه ، وذنب أصحاب الحقوق فى عنقه إلى يوم القيامة يحاسبه الله عليها .

فليتق الله القائمون بهذه المهنة ، لاسيما رجال الدين منهم ، فإنهم أحق وأولى باتباع أوامر الله واجتناب نواهيه ، ولا تغرنهم الحياة الدنيا ، فإن متاع الدنيا قليل ، و إن مايأخذونه من هذا المال عرض زائل لايساوى شيئًا بجانب كرامة الإنسان وعزة الدين ، والوقوف بين يدى رب العالمين ، يوم يتعلق المظلومون بالظالمين ، بل لايعد شيئًا فى جانب سقوط الشرف والكرامة والسمعة ، وليتعظوا بقوله تعالى : (وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا) .

وليحذروا أكل مال اليتيم بالباطل لقوله تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا) .

وليقتدوا بحضرات المحامين النزهاء الشرفاء الذين سطرت أسماؤهم فى سجل التاريخ

بأحرف من نور ، لنصرتهم للحق والعدل ، ومساعدة الضعفاء والمظلومين للحصول على حقوقهم . فلهم بذلك حسن الذكرى فى الدنيا ، وحسن ثواب الآخرة .

هذا ولا سبيل لمنع الجرائم ، ووقوف كل إنسان عند حده إلا بالوازع الدينى ، والزاجر النفسانى .

وأما الزواجر الأخرى فلاتكفى لحمل الإنسان على انتهاج الطريق القويم .

فكثيراً مايقدر الإنسان على الخيانة ، ولايعلم به أحد ، و يتمكن من السرقة و يفلت من أيدى الحراس ، و يستطيع أن يقتل عدداً ، و يأمن من عقاب الحكومة ، واطلاع الناس على أمره ؛ لأنه يعلم أن القانون الوضعى لايحاسب إلا على الأعمال الظاهرة ، ولايحكم إلا على من يثبت خطؤه بالأدلة والبينة والشهود .

وأما الدين الإسلامى الحنيف ، فيحاسب الإنسان على كل مايعمل من خير أو شر ، فيعاقبه على ارتكاب الشر ، ويجزيه على فعل الخير . قال الله تعالى : (يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً ، وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا) .

وقال جل شأنه : (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ) . ولو أقيم حد من حدود الله اصلح حال العالم ، وقلت المظالم .

لهذا كان الناس كلهم فى أشد الحاجة لهذا الزاجر الدينى — وهو إقامة حدود الله — حتى تقل الجرائم والمفاسد ، و يمتنع الظلم ، والاعتداء على الحقوق ؛ فيسعد المجتمع الإنسانى ، و يعيش الناس فى صفاء وهناء ، وأمن وراحة واطمئنان ، والعاقبة للمتقين .

على فكرى

(نشرت بمجلة النهضة النسائية)

بالسنة الحادية عشرة — العدد ٥ مايو سنة ١٩٣٣

٢٥ — استقلال القضاء

إن الحق والنزاهة قوام القضاء ، وأس العدالة ؛ فالقاضى الذى أقامه الله حكماً بين الناس ، يفصل فيما يعرض عليه من خصومات ومشاحنات ويحمى الأموال والحقوق ، ويعصم الدماء ، فهو موئل الإنصاف ، وحصن العدل ، وموضع الرجاء والأمل .

وأول واجب عليه أن يتحرى الصواب فى أقواله ، والسداد فى أحكامه ، ويقيم شعائر الدين والقانون ، غير هياب ولا وجل ، ولا متأثر بأى مؤثر يجعله يحيد عن جادة الحق ، أو يتنكب سبيل العدل ؛ بل يكون فى جميع أحكامه مثال النزاهة والإخلاص والصدق والتقوى ، ليتمتع كل فرد بحقوقه ، ويطمئن على شئونه ، وأن يكون مستقلاً فى قضائه .

ويصدر أحكامه عن دليل وبرهان ، كما يرتضى ضميره وعقله ودينه ، لامتحيزاً لفئة دون أخرى ، ولا مؤثراً لحزب على حزب ، ولا يجعل للغضب عليه سبيلاً مهما لقى من جفوة الخصم وتشديده فى المطالبة بحقه .

فإن المؤثرات المختلفة مدعاة إلى الظلم ، ومجلبة للبغى والعدوان ، إذ بها يختل نظره ، فيتجاوز الحق إلى الباطل فى حكمه ، لأن ما يؤثر على العقل ، ويغير الفكر ، من محاباة أو وساطة أوغضب أومجاملة يشغل القاضى عن استيفاء النظر ، ودقة البحث ، واستقراء الحوادث ، ويبعده عن طريق الهدى .

أما إذا خلص القاضى من جميع الشوائب ، وبعد عن كل المؤثرات أيا كان نوعها ، فإنه يكون مثلاً أعلى للقضاء العادل ، وهنا يمتد ظل الأمن على الناس فيسعدون وينعمون .

وأخر بمن نُصِب للفصل بين الناس فى الخصومات ، واستجلاء الحق ، واستيضاح الصواب ، أن يكون حريصاً على وضع الأمر فى نصابه ، وتفرس الحق واستخلاصه من بين الأقوال والمزاعم .

ولا يتحقق ذلك إلا بأن يكون حاضر الذهن ، واعياً لكل ما يقال بين يديه ، يزنه بميزان الصَّيْرَفىّ الناقد ، والعبقرى الحاذق ، مالكاً زمام أمره ، جاعلاً الحق نصب عينيه ،

خالياً من المؤثرات والصوارف التى تحول بينه و بين ماجعل له ، عادلاً لاتستفزه الأهواء ، ولايأسر لبّه الملق والاطراء ، حليمًا لاتحلُّ حَبْوَته المكدرات ، أميناً غير متحيز ولا مائل ، فارغ النفس من الهموم والتحزب والشواغل والأهواء .

إذ ذلك يردع من جبروت وسطوة الظالم ، ويقوى الضعيف المحق ، ويضعف القوى المبطل ، وتستنير بضوء عدله مسالك الحياة الوادعة السعيدة ، ويتحطم على صخرته كل بطش وجور .

(أدب الإسلام)
الجزء الرابع ٦٣ — ٦٤

مثال فى استقلال القضاء

ومن الأمثلة الرائعة لاستقلال القضاء المثال الذى نسوقه إليك :

لما توجه على كرم الله وجهه إلى (صِفِّين) افتقد درعًا له ، فلما انتهت الحرب ورجع إلى (الكوفة) وجد الدرع فى يد يهودى .

فقال لليهودى : الدرع درعى ، لم أهبه ، ولم أبعه .

فقال اليهودى : درعى وفى يدى .

فقال على : نسير إلى القاضى ، فتقدم كل منهما إلى شُريح القاضى ، فقال له شُريح : قل يا أمير المؤمنين

فقال : نعم هذه الدرع التى فى يد هذا اليهودى درعى ولم أبعه ، ولم أهبه .

فقال شريح لليهودى : ما تقول ؟

قال : درعى وفى يدى ؟

فقال له شريح : ألك بينة ياأمير المؤمنين ؟ قال : نعم .

(قنبر والحسن) يشهدان أن الدرع درعى .

فقال شريح : شهادة الابن لاتجوز للأب .

فقال على : رجل من أهل الجنة لاتجوز شهادته ! سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ سَيِّدَا شَبَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ » .

فقال اليهودى : أمير المؤمنين قدّمنى إلى قاضيه ، وقاضيه قضى عليه ، أشهد أن هذا هو الحق ، أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله ، وأن الدرع درعك يا أمير المؤمنين .

(ولا غرو فالحق أبلج ، والباطل لجلج) .

فمن هذا القصص تعرف إلى أى حد كان استقلال القضاء فى صدر الإسلام .

(أدب الإسلام)
الجزء الرابع ص ٦٤

٢٦ — أمثلة فى القضاء بالعدل بين الناس

١ — كان قضاء الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم المثل الأعلى لصيانة الحقوق والتسوية بين الخصوم .

ويكفى شاهداً على هذا أنه صلى الله عليه وسلم أراد إقامة الحدّ على امرأة مخزومية سرقت .

فخاطبت قريش أسامة ليكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى إسقاط الحدّ عنها ، فقال صلوات الله وسلامه عليه : أتشفع فى حد من حدود الله ؟ ثم قام فخطب فقال :

« يأيها الناس ؛ إنما أهلك الذين من قبلكم ، أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد . وايم الله ؛ لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها » .

وفى الحديث : « وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ لَوْ كَانَتْ فَاطِمَةَ بِنْتِ مُحَمَّدٍ لَقَطَعْتُ يَدَهَا » .

(وسيأتى شرح هذا الحديث) .

٢ — أخذ عمر بن الخطاب رضى الله عنه فرساً من رجل على سوم ، فحمل عليه فعطب فخاصمه الرجل ، فقال عمر :

اجعل بينى و بينك حَكَما ، فقال الرجل : إنى أرضى بشريح العراقى ، فقال شريح : أخذتَه صحيحاً سليماً . فأنت ضامن له حتى ترده صحيحاً سليماً .

قال الشعبى (وهو راوى القصة) : فكأنه أعجبه فبعثه قاضياً .

نعم الرئيس العادل ، يعجب بالعالم الذى دلته التجربة على استقامته عند الحكم ، وتجرده من كل داعية غير داعية ظهور الحق ، ويدعوه هذا الإعجاب إلى إقامته قاضياً بين الناس .

٣ — ومن القضاة العادلين ، من تطرح بين يديه قضية يدلى فيها أحد الخصمين بشهادة الخليفة نفسه فيرد الشهادة فى غير مبالاة .

شهد السلطان (بايزيد) عند شمس الدين محمد بن حمزة الفنارى (قاضى الآستانة) فى خصومة رفعت إليه ، فرد القاضى الشهادة .

ولما سأله السلطان عن وجه ردها قال له : إنك تارك للجماعة . فبنى السلطان أمام قصره مسجداً ، وعين لنفسه فيه موضعاً ، ولم يترك الجماعة بعد ذلك .

٤ — ورفعت قضية إلى محمد بن بشير (قاضى قرطبة) أحد الخصمين فيها سعيد الخير (عم الخليفة عبد الرحمن الناصر) وأقام سعيد بيِّنة أحد شهودها الخليفة نفسه .

ولما قدّم كتاب شهادة الخليفة إلى القاضى ، نظر فيه ثم قال لوكيل سعيد : هذه شهادة لاتقبل عندى ، فجىء بشاهد عدل .

فمضى سعيد إلى الخليفة وجعل يغريه على عزل القاضى .

فقال الخليفة : القاضى رجل صالح ، لاتأخذه فى الله لومة لائم ، ولست والله أعارضه فيما احتاط به لنفسه ، ولا أخون المسلمين فى قبض يد مثله .

ولما سئل ابن بشير عن رد شهادة الخليفة قال : إنه لابد من الإعذار فى الشهادة ، ومن الذى يجترئ على القدح فى شهادة الأمير إذا قبلت ؟ ولو لم أعذر لبخست المشهود عليه حقه .

٥ — حكم ابن بشير (قاضى قرطبة) على الخليفة عبد الرحمن الناصر فى قضية رفعها عليه أحد المستضعفين من الرعية ، وأبلغ الخليفة الحكم مقروناً بالتهديد بالاستقالة من القضاء إذا لم يسلم الحكم ويبادر إلى تنفيذه .

أنعم بالدين الإسلامى الحنيف ، الذى يلقن القاضى أنه مستقل ، ليس لأحد عليه من سبيل .

انظر هذا الباب فى كتاب « السمير الواعظ » الجزء الثانى .

قصيدة فى استقلال القضاء فى الأحكام

لحضرة صاحب السعادة السيد شكرى باشا

إن تنصروا الرحمن ينصركم ولو ... طال الزمان على الظلوم وشيمته
فالحكم حكم الله يظهره على ... أيدى القضاة فلا يكن فى مريته
فله ارجعوا مستمسكين بشرعه ... ينصركم حقًا كما فى آيته[1]
وتأملوا قولاً حكيماً فى القضا ... قد قاله رجل سما فى حكمته
ونظيره ماقاله (الباشا على) ... فى مجلس النواب حال إجابته[2]
معناها استقلال هيئات القضا ... ليكون حراً قائمًا بعدالته
فتداخل الحكام فى أعماله ... أمر مخل بالنظام وحرمته
ورقابة الأحكام أمر لازم ... وكذا انتقاء قضاتنا لإفادته
فالحكم ينسب للقضاة بطبعه ... كل بقدر جهوده ودرايته

---

(١) يشير إلى قوله تعالى . (إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) الآية :

(٢) يشير إلى الكلمة الحكيمة التى قالها (على ماهر باشا) فى مجلس النواب وهى .

« إن العدالة ميزان الله فى أرضه ، لسانه بيد القضاء ، ولابد أن يصل به المحقون إلى حقوقهم ، ولئن شالت كفة محق بيد قاض ضعيف فلترجحن له بيد قاض قوى . وعلى الأول الوزر ، وللثانى الأجر والشكر .

إن طبيعة القضاء تأبى على القضاة أن ينتفعوا به ، فهو ربع للانسانية لالبهيمية ، وما هذه الحيالات التى تمر بأوهام ضعفائهم إلا أعاصير نار تحرقهم ثم يلفظهم القضاء من بيئته .

ومثل القاضى الواهم والقاضى العالم ، كمثل السراب والسحاب ، ثم لا يكون إلا الحق ، وما كان للحق مكان فى قلب نكس ولا جبان .

إن القضاء جوهر ، والحكومة عرض ، وهو الذى يكون الحكم ، كالسائل يعطى الزجاج لونه ، ولا عكس .

لذلك كان العدل أساس الحكم ، وليس الحكم أساس العدل » فطوبى لقاض عرف نفسه فعرف الله والناس ، وعرفه الله والناس » .

حكيم

عـدل القضاء وظلمهم لايستوى ... مثل الفريقين استمعه بصحته
كالنور والظلماء فى وصـــفيهما ... أو كالبصير مع الكفيف بظلمته
وكؤمن مع كافر رب احمنا ... من ظلم أنفسنا وســـوء مغبته
ردوا المظالم عاجلاً من قبـل ما ... يأتيكمو الموت الزؤام بفجـأته
قد خاب حامل ظلمه حين الجزا ... لاسيما يوم الحساب وكربته[1]
إذ يجعـــل الولدان شيباً هولُه ... كل امرئ يجزى كما بصحيفته
لاوالد يجـــزى ولا ولد ولا ... (مال) سوى تقوى الإله بطاعته[2]
كل يموت ولا يصاحبه سوى ... أعماله فى قبره وقيامتـــــه
هى (أنسه) أو خصمه طبقاً لمـا ... كسبت يداه بفعـــله لنهايته
من شاء يعرف حاله ومآله ... فعليه بالقرآن محكم آيتـــــه
فيـه البيان لمـا يشاء مع الهدى ... المتقين المؤمنين بشرعتـه

حديث شريف

فى أن القضاء لايحل حراماً ، ولا يحرم حلالاً

عن أم سلمة زوج النبى صلى الله عليه وسلم ، أنه سمع خصومة بباب حجرته ، فخرج إليهم فقال : « إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ، وَإِنَّهُ يَأْتِينِي الْخَصْمُ ، فَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَبْلَغَ مِنْ بَعْضٍ ، فَأَحْسِبُ أَنَّهُ صَادِقٌ فَأَقْضِي لَهُ بِذَلِكَ ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ مُسْلِمٍ فَإِنَّمَا هِيَ قِطْعَةٌ مِنَ النَّارِ ، فَلْيَأْخُذْهَا أَوْ يَتْرُكْهَا » (رواه البخارى وأبو داود)

الشرح

كان لأزواج الرسول صلى الله عليه وسلم حجرات بجوار مسجده المعروف ، ومن بينها حجرة أم سلمة . فبينما النبى صلى الله عليه وسلم فى حجرتها إذ سمع ببابها نزاعاً ومحاورةً ،

---

(١) يشير إلى قوله تعالى . (وقد خاب من حمل ظلماً) الآية .
(٢) يشير إلى قوله تعالى. (يوماً لايجزى والد عن ولده ، ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً) الآية

وخصامًا ومجادلةً ، ارتفعت فيها الأصوات واختلط بعضها ببعض ، وكان ذلك على إرث قديم (كما صرح بذلك فى روايته) فخرج إلى الخصوم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقدّم لهم هذه العظة البالغة قبل أن يقضى فى الشجار ، و يفصل فى النزاع ، فقال لهم :

« إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ » امتثالًا لأمر ربه (قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنْتُ إِلاَّ بَشَرًا رَسُولاً) فلا علم لى بالغيب ، ولا ببواطن الأمور كما يزعم الجاهلون ، إلا ما يوحى إلىَّ ربى من آى القرآن وأمور التشريع ، أما الوقوف على دخائل النفوس وخفايا الأمور ، فأنا وسائر الناس فيه سواء ، فلنا ما ظهر وإلى الله ما بطن ، فإذا حضر مجلسى الخصوم لأفصل بينهم فى نزاع قائم ، فربما كان بعضهم أشد بيانًا من بعض ، وأقوى تأثيراً ، وأقوم قيلاً ، وأقدر على صوغ الحجج ، وتوضيح المشتبه ، وإجلاء الغامض ، لذرابة لسان ، وقوة بيان ، وطول مران ، وحدة ذهن ، وسرعة بديهة . والآخر دونه فى ذلك ، فلا يحسن البيان والخصام ، والحوار والدفاع ، وقد يكون الحق فى جانبه والصدق فى قوله ، ولكن عيّه وضعفه ستر معالم حقه ، و بيان الأول و بلاغته جلى دعواه ، وألبسها ثوب الحقيقة ، وقد تكون دعوى باطلة وقضية مزوّرة ، فيغلب على ظنى ، و يقع فى نفسى صدق من علا بيانه وقوى حجاجه ، وهو فى الباطن كاذب فأقضى له بما ادعى . فمن قضيت له بحق أخيه فى الإنسانية مسلماً أو ذمياً ، معاهداً أو حربياً ، فإنما أقضى له بقطعةٍ من نار ، إذ كان فى الواقع حق غيره لاحقه ، فهو مقرب به لا محالة . فإن رآه الآن مالاً ونفعاً فسيراه فى الآخرة ناراً ولهباً ، فإن شاء فليأخذ ما حكمت له به ، وإن شاء فليترك . فإن أخذ فالنار موعده ، وإن ترك فلعل الله مسامحه ، فالأمر هنا التهديد فى قوله تعالى : (وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شاء فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ) .

والحديث كما ترى أصل كبير فى المحاماة والقضاء ، ونبين لك المهم فى أحكامه :

١ — المحاماة عن الباطل إثم كبير ، وفى ذلك يقول القرآن الكريم :

(وَلاَ تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ ، إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيماً . يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لاَ يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطاً هَا أَنْتُمْ هَؤُلاَءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، فَمَنْ يُجَادِلُ اللهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؟ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً ؟) .

وقال عليه الصلاة والسلام : « مَنْ أعانَ ظَالِمًا لِيُدْحِضَ بِبَاطِلِ حَقًّا فَقَدْ بَرِئَتْ مِنْهُ ذِمَّةُ اللهِ ورَسُولِهِ » .

فإذا انضم إلى ذلك استخدام القوة الخطابية ، والمواهب النفسية فى إظهار الحق فى معرض الباطل ، ورسم الباطل فى مظهر الحق ، كان الإثم أشد ، والجرم أكبر .

أما أن تستخدم البلاغة ، وقوة العارضة فى نصرة الحق و إزهاق الباطل فى عبارة سياجها الأدب ، منزهة عن التشهير بالخصم والثلم للعرض ، فذلك مالاحرج عليك فيه ؛ بل لك من الله أجر الدفاع ، وثواب الإقناع . وإذا كان قضاء الحاكم بالباطل لايحل حراماً ، ولا يحرم حلالاً ، فبأى وجه يستحل المحامون أجر الدفاع عن الباطل إذا وقفوا على الحقيقة قبل التوكيل ، أو فى أثناء المرافعة ، ليعلموا أن الحياة الدنيا متاع ، وأن ماعند الله خير وأبقى ، وأنه لايبقى على الحرام ملك ، ولا يضيع عند الله حريص على حق .

٢ — من ادعى حقاً أمام القاضى ، وعجز عن إثباته ، وطلب يمين المدعى عليه فحلف ، فبرأه القاضى وهو فى الحقيقة مدين لم يبرأ عند الله ولم يحل له بذلك حق أخيه . فلو تمكن المدعى من إثبات دعواه بعد وجب على القاضى الاستماع لبينته ، ونقض الحكم الأول ، فإن الحق قديم ، والرجوع إلى الحق خير من التمادى فى الباطل.

وكذلك لو ادعى إنسان على آخر مالاً ، أو ادعى زوجية امرأة لم ترض به زوجًا ، أو ادعى على رجل تطليقة لزوجته وأقام البينة على ذلك ، وكانت فى الظاهر بينة عادلة فحكم بها القاضى وهى فى الواقع كاذبة مزورة لم يحل له المال ، ولم يكن له حقوق الأزواج ، ولم تحرم المدعى طلاقها على زوجها ؛ بل المدعى مؤاخذ بعلمه ومعاقب على كذبه ، ولو يرفع عنه حكم القاضى الذى أداه إليه اجتهاده .

أما إذا كان القاضى عالمًا بكذب المدعى وحكم له ضد خصمه فعليه وزر حكمه لأنه شارك المدعى فى كذبه و إثمه .

فيا أيها المسلم لاتسلك إلى الباطل الحيل ، ولا تأكل الإثم و إن قضت بذلك المحاكم ، أو عجز صاحب الحق عن رفع دعواه لفقده الرسوم ، أو لأنه يخشى بأسك وسلطانك ، أو لأنه تعوزه البينة والدليل ، واجعل لعلمك قيمة فاعمل به و إن خالفه القضاء .

واعلم أن الله رقيب عليك ، يعلم سرك وجهرك ، وباطلك وحقك ، وهو أولى بالخشية ، وأجدر بالرعاية (وَتَخْشَى النَّاسَ ، وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ) .

وأما أنت أيها القاضى فليكن لك فى رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة ، فإذا تقدم إليك الخصوم وقد وجد بينهم النزاع فتقدم إليهم بالموعظة الحسنة ، والمقالة المؤثرة ، عسى أن يرجعوا عن خصامهم ويعترفوا بالحق فيعودوا من مجلسك إخواناً متصافين ، ولنصحك شاكرين . (الأدب النبوى)

الحديث ١١٤

النهى عن القضاء حين الغضب

عن أبى بكرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لاَ يَقْضِيَنَّ حَكَمٌ » . وفى رواية : « لاَ يَحْكُمُ أَحَدٌ بَيْنَ اثْنَيْنِ وَهُوَ غَضْبَانُ » رواه الجماعة .

الشرح : العدل دعامة العمران ، وباعث الطمأنينة إلى النفوس ، به يحق الحق ويزهق الباطل ، يأمن فى ظلاله الخائف ، ويرتدع من جبروته وسطوته الظالم ، ويقوى الضعيف المحق ، ويضعف القوى المبطل ، وتستنير بضوئه مسالك الحياة الوادعة السعيدة ويضمحلّ على صخرته صخب البطش والجور .

وأحر بمن نصب للفصل بين الناس فى الخصومات واستجلاء الحق فى ثنايا الدعاوى والأباطيل أن يكون جِدَّ حريص على وضع الأمر فى نصابه وتفرس الصواب من بين عريض الأقوال والمزاعم[1] ».

« ولا يتحقق ذلك إلا بأن يكون حاضر الذهن داعياً لكل مايقال بين يديه ، يزنه بميزان الصيرفى الناقد والعبقرى الحاذق ، مالكا زمام أمره — خالى الذهن من الصوارف التى تحول بينه و بين ماجعل له ، رزينا لاتستفزه الأهواء ، ولا يأسر لبَّه الملق والإطراء ، حليما لاتحل حبوته المكدرات ، ولا يهيج طائره المفزعات ، فارغ النفس من الهموم والشواغل[2]

١ — ٢ سبق ذكر ذلك فى استقلال القضاء . ص ٢١٥

هنالك يتحقق منه العدل ، ويرتضى الحكم ، وتخضع الهامات العاصية ، وتذل النفوس الطاغية ويمتد ظل الأمن على الناس ، وتسكن ثورة الأهواء ويقضى على نزوات العيث والفساد .

أما إذا كان القاضى أو الحَكَمْ على غير ذلك اختل نظره ، وربما تجاوز الحق إلى الباطل فى حكمه ؛ كأن يكون حال غضب استولى على نفسه وصعب عليه صرفه ومقاومته . وكذا سائر مايتعلق به القلب تعلقاً يشغله عن استيفاء النظر ودقة البحث لاستيضاح الصواب .

ولذا نهى الرسول صلى الله عليه وسلم فى هذا الحديث أن يقضى القاضى بين الناس وهو غضبان ، وقاس العلماء على الغضب كل مامن شأنه أن يؤثر على العقل ويغير الفكر من جوع أو مرض أو هم أو نحو ذلك . (الأدب النبوى)

الصلح أولى قبل فصل القضاء

من وصايا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « ردوا الخصوم حتى يصطلحوا فإن فصل القضاء يؤرّث بينهم العداوة والبغضاء » .

فيالها من وصية خالدة ، وحكمة جامعة ، وكلمة شاملة ، ويكفى أن قائلها عمر بن الخطاب الذى درس أحوال الناس ، وعرف أن الحياة عراك دائم ، وجهاد مستمر ، وأن الطبيعة البشرية بحكم تنازع البقاء ، لاتخلو من حقد أو تنافس . فكل إنسان يعتدّ برأيه ، ويرى أنه هو الصواب وإن كان باطلاً . ومن هنا ينشأ حتما النزاع والتصادم بين الناس .

وكثيراً مانرى أن فصل القضاء فى المنازعات يثير الحمية بين المتخاصمين ، ويؤرث بينهم العداوة والبغضاء ، ويقفل باب الصلح فى وجوه المتنازعين ، بل ربما كان عاملاً من عوامل اشتداد الخصومة فى النفوس ، وداعياً إلى اشتعال نار العداوة فى القلوب .

ولعل من يذهب إلى إحدى المحاكم الشرعية أو الوطنية يرى ما تتركه أحكام القضاء من الأثر فى نفوس من صدرت ضدهم الأحكام ، حتى لقد يؤدى الأمر ببعضهم إلى التراشق بألفاظ السباب فى ساحة القضاء . وياليت الأمر يقف عند هذا الحد ، فقد لا تمر أيام بعد حكم القضاء إلا وتنشب المعارك بين الطرفين ، ويمتد النزاع إلى جميع أفراد الأسر

المتنازعة ، بعد أن كان محصوراً فى دائرة ضيقة ، مع أن الأمر يكون بعكس ذلك فى اعتقادى إذا وجد بين أفراد كل أسرة من يقول الكلمة الطيبة ، و يوفق إلى إزالة مافى الصدور من الحسد والبغضاء .

لهذا رأى عمر بن الخطاب بثاقب فكره أن فصل القضاء فى المنازعات مما يؤرث العداوة بين المتنازعين ، ولا يأتى بالغاية المنشودة غالباً كما هو الواقع والمشاهد الآن .

فمن الحكمة وسداد الرأى أن يكون للناس فيما بينهم مصلحون ، فتحل المشاكل حلاً مرضيًا فى زمن وجيز قبل أن يتفاقم أمرها ، و يستشرى شرها . وليس من شك فى أن ثمة فرقاً بين أن يتولى صلح قوم رئيسهم ، وهو أقرب الناس إليهم، أوصديقهم وهوأحب الناس إليهم ، وأعرف بأمرهم ، و بين أن يتولى ذلك حَكَمٌ بعيد عن المتخاصمين لايدرى من أمرهم شيئًا ، اللَّهم إلا ماقد يقدم له فى سبيل تأييد الدعوى من بيانات وأسانيد .

الاهرام فى ٢٦ — ٨ — ١٩٤٨

من حوادث الأقاليم

الصلح بين الأسر الكبيرة بالعريش

العريش : (لمراسل الأهرام) عقد صاحب العزة الأميرألاى (محمد زكى عبدالحميد بك) محافظ سينا ، اجتماعاً فى حديقة داره شهده جميع رؤساء الأسر المتخاصمة ، وغيرهم من رؤساء الأسر الأخرى . ولما انتهوا من تناول المرطبات ، ارتجل كلمة بليغة حثهم فيها على نبذ الخصام ، ثم ألقى صاحب العزة (محمد الشافعى اللبان بك) كلمة دعاهم فيها إلى إقرار الصلح ، و بعد أن تعاقب الخطباء ، أخذ المتخاصمون يتعانقون متعاهدين على نبذ الأحقاد .

وقد نحرت الذبائح لهذه المناسبة ، ووزّعت لحومها على الفقراء .

الصلح خير وأبقى

لما كان النزاع والشقاق كثيراً مايحصل بين الزوجين ، فقد أمر الله فى كتابه الكريم بالسعى فى الصلح بينهما ، فقال تعالى فى سورة النساء آية ٣٥

(وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا) و إن علمتم خلافاً بين الزوجين (فَابْعَثُوا) إليهما برضاهما

(حَكَماً) رجلا عدلاً (مِنْ أَهْلِهِ) من أقاربه (وَحَكَماً مِنْ أَهْلِهَا) و يمكّن الزوج حكمه فى طلاقه وقبول عوض عليه ، وتوكل هى حكمها فى الاختلاع .

فيجتهدان و يأمران الظالم بالرجوع ، أو يفرّقان بينهما إن رأياه (إِنْ يُرِيدَا) أى الحكمان (إِصْلاَحًا يُوَفِّقِ اللهُ بَيْنَهُمَا) بين الزوجين : أى يقدرهما على ماهو الطاعة من إصلاح أوفراق (إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا) بكل شئ (خَبِيرًا) بالبواطن كالظواهر .

وقال تعالى فى سورة النساء ١٣٨ :

(وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ) توقعت (مِنْ بَعْلِهَا) زوجها (نُشُوزًا) ترفعاً عليها بترك مضاجعتها ، والتقصير فى نفقتها لبغضها وطموح عينه إلى أجمل منها (أو إعراضاً) عنها بوجهه (فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا) فى القسم والنفقة بأن تترك له شيئاً طلباً لبقاء الصحبة ، فإن رضيت بذلك و إلا فعلى الزوج أن يوفيها حقها و يفارقها (وَالصُّلْحُ خَيْرٌ) من الفرقة والنشوز والإعراض .

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : الصلح أولى قبل فصل القضاء .

خطبة منبرية فى الإنذار الإلهى

الحمد لله الملك القادر ، المطلع على مافى القلوب والضمائر (وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ، وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ) وأشهد أن لا إله إلا الله ، مَنْ أطاعه وقاه وأعطاه مناه ، وأحياه حياةً طيبةً ، وجعل الجنة مستقره ومثواه . ومن عصاه أشقاه وأذاقه الضر فى دنياه ، وجعل النار مأواه (إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لاَ يَمُوتُ فِيهَا وَلاَ يَحْيَا ، وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلاَ . جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى) . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله خير من نهى وأمر ، و بشر وأنذر . اللهم صلِّ وسلم على ذلك الرسول الكريم ، سيدنا محمد ذى القلب السليم ، والخلق العظيم ، وعلى آله وصحبه الذين سلكوا مسلكه واهتدوا بهديه ، فلم تشغلهم دنياهم عن أخراهم ، ولا حاضرهم عن مستقبلهم ، بل كانوا كما قالوا : (رَبَّنَا آتِنَا

فى الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ . أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ) .

أما بعد : فيأيها المسلمون ؛ إذا جاءكم مُحضَر ومعه إعلان فيه الإنذار بالحضور إلى المحكمة لسماع الدعوى المرفوعة من فلان ، فماذا يكون ؟ لاشك أنكم تهتمّون بذلك الإنذار اهتماماً عظيما . فتفكرون فيه ليلاًونهاراً ، سراً وجهاراً ، وتسألون المجرّبين للقضايا ، وتبحثون عن المحامى البارع ليدافع عنكم الدفاع النافع ، كل ذلك لأنكم تريدون كسب القضية ، والخروج منها، لاتبعة عليكم ولامسئولية . وما غاية خسرانها سوى غرامة مالية أو سجن أياماً معدودة ، وليكن غاية خسرانها الإعدام . فالموت واحد و إن تنوعت الأسباب (وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا ، وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) على أن القاضى الذى يحكم فى القضية بَشَر لايملك لنفسه جلب نفع ولا دفع ضرر ، قلبه بيد الرحمٰنُ يصرفه كيف يشاء ...

وها هو قد جاءكم مُحْضر عظيم ، بل سيد الأولين والآخرين ، مهبط الوحى والإلهام ، والداعى إلى السلام بالإسلام . جاءكم بإعلان ليس من وضع البشر ، بل هو كلام العلىّ الأكبر .

فيه نبأ ماقبلكم ، وخبر مابعدكم ، وحُكْمُ مابينكم ، وهو الفصْل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله ، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذى لاتزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا يَخْلَق على كثرة الردّ ولا تنقضى عجائبه . وهو الذى لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا : (إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ، يَهْدِى إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ، وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا) .

فى ذلك الإعلان إنذاركم جميعاً بالحضور أمام المحكمة العليا التى قاضيها أحكم الحاكمين ، لسماع الدعوى المرفوعة عليكم من كل من ظلمتموه ، ومن الرسول صلى الله عليه وسلم فقد خالفتموه ، ومن القاضى جل شأنه فقد عصيتموه ، و إن حضوركم فى يوم لا كأيام الدنيا إذ يذهب المدعَى عليه إلى المحكمة ومعه أهله و إخوانه، وخلاّنه وأعوانه ، يؤنسونه و ينفسون

كربه ، ويبشرونه ويُطَمْئِنُون قلبه . إى ورب إنه ليوم عبوس قمطرير ، شره مستطير ، (يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ، وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ، وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ. لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ) ، ألم تسمعوا قوله جل علاه : (وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلاَ شَفِيعٍ يُطَاعُ . يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ. واللهُ يَقْضِي بِالحَقِّ ، وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لاَ يَقْضُونَ بِشَيْءٍ ، إِنَّ اللهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) ، جبار قدير ، بكتاب منير ، فيه ذلك الإنذار الخطير ، بعث صفوة الخلق سيدنا محمدا البشير النذير .

ولكنكم لم تهتموا به اهتمامكم بانذار الدنيا — أأنتم فى شك منه ؟ — إنكم تقولون : إنا مؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وقد جئنا المسجد للصلاة ، ولكن بينكم المنكرات ذائعة ، والسيئات شائعة . الدماء مسفوكة ، والأعراض منتهكة ، والخمور تشرب ، والزنا يرتكب ، والربا يؤكل ، ومن القمار اليانصيب مشتهى محبوب ، وحقوق الضعفاء ضائعة ، وسوق النفاق رائجة ، والقرآن هجرتموه ، والدين سببتموه . والظلم بيِّن (وهو ظلمات يوم القيامة) أتهاونتم بالإنذار اعتماداً على شفاعة الشافعين ؟ أم على إنكار الذنوب ؟ أم على إلقاء التبعة على الشيطان ؟ أم على أن توكلوا عنكم محامياً بارعاً . إن الله تعالى يقول: (مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ) وغافلون من يعتمدون على إنكار الذنوب يوم الدين (يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ ، وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ هُوَ الحَقُّ الْمُبِينُ) .

والشيطان يوم القيامة يقول للعاصى : إنى لم أقدك بسلاسل ولا أغلال إلى المعاصى ، ولكنى دعوتك فكنت لدعوتى ملبيًا ، ولقولى سميعا مطيعا . (وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ، وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلاَّ أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ، فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ ، مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ ، إِنَّ الظَّالِمِينَ

لَهُمْ عَذَابَ أَلِيمٌ) ولا محاماة (يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا ، وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) .

فيأيها المسلمون ؛ الأمر جِدٌّ ليس بالهزل ، فاستعدوا واهتموا بإنذار مولاكم الذى يعلم سرَّكم وعلانيتكم كاهتمامكم بإنذار الدنيا بل أشد ، فاعملوا الصالحات ، واهجروا السيئات ، لتكسبوا القضية يوم حسابكم فتسلموا من سجن جهنم ، وتفوزوا بأطيب حياة فى دار العزِّ والكرم .

روى البخارى ومسلم فى صحيحيهما عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ لِأَهْلِ الجَنَّةِ : يَا أَهْلَ الجَنَّةِ ؛ فيقولون : لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ والخَيْرُ كُلُّهُ فى يَدَيْكَ ، فيقولُ : هَلْ رَضِيتُمْ ؟ فيقولون : وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى يَا رَبَّنَا وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَالَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ ؟ فيقول : أَلَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذٰلِكَ ؟ فيقولون : وأَىُّ شَىْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذٰلِكَ ؟ فيقول : أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِى فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا » .

وقد رويا عن عدى بن حاتم رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَامِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ ، لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجُمَانٌ ، فَيَنْظُرُ أَيْمَنَ مِنْهُ فَلَا يَرَى إِلَّا مَاقَدَّمَ ، وَيَنْظُرُ أَشْأَمَ مِنْهُ فَلَا يَرَى إِلَّا مَاقَدَّمَ ، وَيَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَلَا يَرَى إِلَّا النَّارَ تِلْقَاءَ وَجْهِهِ ، فَاتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ » .

محمد مصطفى أبو العلا

واعظ القاهرة

٢٧ — محكمة العدل الإلهية

قضية فصـــل القضاء

بين المجرمين الأشقياء، والأتقياء السعداء !

فى يوم القيامة تعرض أعمال العباد على المولى سبحانه وتعالى ، فيحكم بينهم بالعدل ويفصل فى قضيتهم ، ويجازى كل امرئ بعمله ، ففريق فى النار ، وفريق فى الجنة ، كما جاء فى كتابه الكريم :

يقول الله تعالى ذكره : (وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا) أى أضاءت يوم القيامة إذا تجلى الحق جل وعلا للخلائق لفصل القضاء بين العباد (وَوُضِعَ الْكِتَابُ) أى كتاب الأعمال (وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ) قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : يشهدون على الأمم بأنهم بلغوهم رسالات الله إليهم (والشهَدَاءِ) من الملائكة : الحفظة على أعمال العباد من خير وشر (وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالحَقِّ) أى بالعدل (وَهُمْ لَايُظْلَمُونَ) .

كما قال تعالى : (وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ، فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ، وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ، وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ) .

وقال جل وعلا : (إِنَّ اللهَ لَايَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ، وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا) .

ولهذا قال عز وجل : (وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَاعَمِلَتْ) أى من خير أو شر (وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ . وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا ، حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ ؟ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هٰذَا ؟ قَالُوا بَلَىٰ وَلٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ . قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ) .

يخبر الله تعالى عن حال الأشقياء الكفار كيف يساقون إلى النار ؟ .

وإنما يساقون سوقاً عنيفاً بزجر وتهديد ووعيد كما قال عز وجل :

(يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا) أى يدفعون إليها دفعاً .

وهذا وهم عطاش ظماء كما قال جل وعلا فى الآية الأخرى :

(يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمٰنِ وَفْدًا . وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا) .

وهم فى تلك الحال : صُمٌّ وبكم وعمى ، منهم من يمشى على وجهه كما قال تعالى:

(وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ، كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا) .

وقوله تبارك وتعالى : (حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا) أى بمجرد وصولهم إليها فتحت لهم أبوابها سريعاً لتعجل لهم العقوبة (وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا) أى يقول لهم : خزنتها من الزبانية الذين هم غلاظ الأخلاق ، شداد القوى ، على وجه التقريع والتوبيخ والتنكيل (أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ ؟) أى من جنسكم تتمكنون من مخاطبتهم والأخذ عنهم (يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ) أى يقيمون عليكم الحجج والبراهين على صحة مادعوكم إليه (وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هٰذَا) أى ويحذرونكم من شر هذا اليوم ؟ (قَالُوا بَلَى) أى يقول الكفار لهم : بلى : أى نعم قد جاءونا وأنذرونا وأقاموا علينا الحجج والبراهين ، (وَلٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ) أى ولكن كذبناهم وخالفناهم لما سبق لنا من الشقوة التى كنا نستحقها ، حيث عدلنا عن الحق إلى الباطل ، كما قال عز وجل مخبراً عنهم فى الآية الأخرى :

(كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ؟ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ ، إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِى ضَلَالٍ كَبِيرٍ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِى أَصْحَابِ السَّعِيرِ) أى رجعوا على أنفسهم بالملامة والندامة (فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ) أى بعداً لهم وخساراً .

وقوله تعالى : (قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا) أى كل من رآهم وعلم حالهم يشهد عليهم بأنهم مستحقون للعذاب بما حكم العدل الخبير عليهم به ، ولهذا قال

جل وعلا : (قِيلَ ادْخُلُوا أبواب جَهَنَّمَ خالدينَ فيها) أى ماكثين فيها لاخروج لكم منها ولا زوال لكم عنها (فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ) أى فبئس المصير ، و بئس المقيل لكم بسبب تكبركم فى الدنيا ، و إبائكم عن اتباع الحق ، فهو الذى صيركم إلى ما أنتم فيه ، فبئس الحال ، و بئس المآل .

⁂

(وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ، حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ . وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ ، نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ ، فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ) .

هذا إخبار عن حال السعداء المؤمنين حين يساقون على النجائب وفداً إلى الجنة .

يقول الله تعالى ذكره : (وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا) أى الذين خافوا الله وأطاعوه يساقون إلى الجنة زمراً ، أى جماعةً بعد جماعة ، وهم المقربون ، ثم الأبرار ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، كل طائفة مع من يناسبها ، الأنبياء مع الأنبياء ، والصديقون مع أشكالهم ، والشهداء مع أضرابهم ، والعلماء مع أقرانهم ، وكل صنف مع صنف ، كل زمرة تناسب بعضها بعضاً .

(حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا) أى وصلوا إلى أبواب الجنة بعد مجاوزة الصراط حُبسوا على قنطرة بين الجنة والنار ، فاقتص لهم مظالم كانت بينهم فى الدنيا ، حتى إذا هذبوا ونُقوا أذن لهم فى دخول الجنة .

وقد ورد فى حديث الصور : أن المؤمنين إذا انتهوا إلى أبواب الجنة تشاوروا فيمن يأذن لهم فى الدخول : فيقصدون آدم ثم نوحاً ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى ثم محمداً صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين ، كما فعلوا فى العرصات عند استشفاعهم إلى الله عز وجل أن يأتى لفصل القضاء ليظهر شرف محمد صلى الله عليه وسلم على سائر البشر فى المواطن كلها ، وقد ثبت فى صحيح مسلم عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَنَا أَوَّلُ شَفِيعٍ فِي الْجَنَّةِ » وفى لفظ لمسلم : « وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ يَقْرَعُ بَابَ الْجَنَّةِ » .

(وهناك أحاديث طويلة كثيرة فيمن يدخل الجنة من أمة محمد صلى الله عليه وسلم وفى صورهم) .

يقول الله تعالى ذكره : (حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا) ، أى حتى إذا جاءوها تلقتهم الملائكة الخزنة بالبشارة والسلام والبقاء كما تلقى الزبانية الكفرة بالتثريب والتأنيب (وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا) أى أبواب الجنة السبعة ، وقيل : الثمانية ، منها باب يسمى (الريان) ، لايدخله إلا الصائمون ، ومفتاح الجنة « لاإله إلا الله » .

وقوله تعالى : (وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ) أى طابت أعمالكم وأقوالكم وطاب سعيكم وطاب جزاؤكم (فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ) أى ماكثين فيها أبداً لا يبغون عنها حِوَلاً (وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُ) أى يقول المؤمنون إذا عاينوا فى الجنة ذلك الثواب الوافر ، والعطاء العظيم ، والنعيم المقيم ، والملك الكبير ، يقولون عند ذلك (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُ) أى الذى كان وعدنا على ألسنة رسله الكرام كما دعوا فى الدنيا (رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ) (وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ) .

وقوله تعالى : (وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ) أى أرض الجنة كقوله تعالى : (وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ الصَّالِحُونَ) ولهذا قالوا : (نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ) أى أين شئنا حللنا فنعم الأجر أجرنا على عملنا .

⁂

(وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِىَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) .

لما ذكر تعالى الحكمة فى دخول أهل الجنة الجنةَ وأهل النار النارَ ، وأنه نزل كلا فى المحل الذى يليق به ويصلح له ، وهو العادل فى ذلك الذى لايجور ، أخبر عن ملائكته أنهم محدقون من حول العرش المجيد ، يسبحون بحمد ربهم ويمجدونه ويعظمونه ويقدسونه ، وينزهونه عن

النقائص والجور ، وقد فصل القضية ، وقضى الأمر ، وحكم بالعدل ، ولهذا قال عز وجل: (وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ) أى قضى بين الخلائق (بِالْحَقِّ) أى بالعدل ، ثم قال : (وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) أى نطق الكون أجمعه ناطقه وبهيمه لله رب العالمين بالحمد فى حكمه وعدله ؛ فهو بلا شك رب العالمين ، وأحكم الحاكمين .

العدل (عند قدماء المصريين)

غذاء الآلهة والشعب

كان المصريون القدماء يعتقدون أن النظام الملكى ليس من وضع البشر ، ولكنه من وضع الخالق نفسه جل شأنه منذ خلق العالم .

وعلى هذا رفع أولئك المصريون القدماء بعض ملوكهم إلى مافوق مصاف البشر ، وكانوا يعدون النظام الملكى هبةً من الخالق ونعمةً تكفل رخاء الشعب و إسعاده ، بل كانوا يعتقدون أن الخالق تقدست ذاته تقلد عرش العالم منذ اليوم الذى خلقه فيه ثم أورث العرش سلالته ، وخلفاءه على الأرض من الفراعنة العظام .

هذا ولا توجد كلمة الدولة فى اللغة المصرية القديمة ، ويرجع هذا إلى أن جميع مقومات الدولة كانت مركزة فى شخص فرعون الجالس على عرش البلاد ، فكان هو مصدر السلطة والقوة والثروة .

وكان فرعون يسير فى حكم رعاياه ، وفق نظام خاص مقدس هو القانون الذى سنه أبوه « رع » حين بدا حكمه للعالم كما تحدثنا بذلك الأساطير ، ويلخص هذا القانون فى توخى العدالة والصدق والحق وأداء الواجب على الوجه الأكمل دون تقصير أو تراخ ، وقد سار على سننه كل فراعنة مصر ، لاعتقادهم أن من يحيد عن سبيله لا يكون جديراً بأن يدعى ابن « رع » . ولقد ارتضى المصريون النظام الملكى ، وتقبلوه مغتبطين طول تاريخهم المجيد وكانوا يسمون شريعته «ماعت» أى شريعة العدالة والإنصاف؛ كما كانوا يعتقدون أن هذه الشريعة غذاء الآلهة وقوام حياتهم ، كما أنها غذاء الشعب وعماد حياته ، ولا غرابة إذن فى أن نرى الشعب المصرى قد خضع للفراعنة خضوعاً تامًّا ، فهؤلاء الفراعنة فى اعتقاده لم

يكونوا ينطقون إلا بوحى من « ماعت » الشريعة التى سنها « رع » ومن أجل ذلك كان أهم قربان ، وأثمن هدية يقدمها فرعون للآلهة هى صورة «ماعت» التى تمثل امرأة تضع على رأسها ريشة ترمز بها للعدالة .

وكثيرة هى الصور التى يبدو فيها « سيتى الأول » وهو يقدم هذه الصورة للآلهة ، وكذلك كان لزاماً على كل قاض فى العصور المصرية القديمة أن يحلى صدره بصورة «ماعت» كما كان عليه عند النطق بالحكم أن يمسك بهذه الصورة ، ويشير بها نحو من فى جانبه الحق كأنه يقول له : « إن العدالة فى جانبك » .

وهكذا ترى أن سلطات الحكم بأنواعها كانت مجتمعة فى شخص فرعون مصر الذى كان يحكم وفقاً لنظام إلهى يتمثل فى حكمة « ماعت » وهى دستور العدالة والصدق والأمانة والطاعة والنظام .

(الأثرى الشهير)

سليم حسن

الأهرام فى ١٢ يونيه سنة ١٩٤٩